

في شرق اليمن

(يافع)

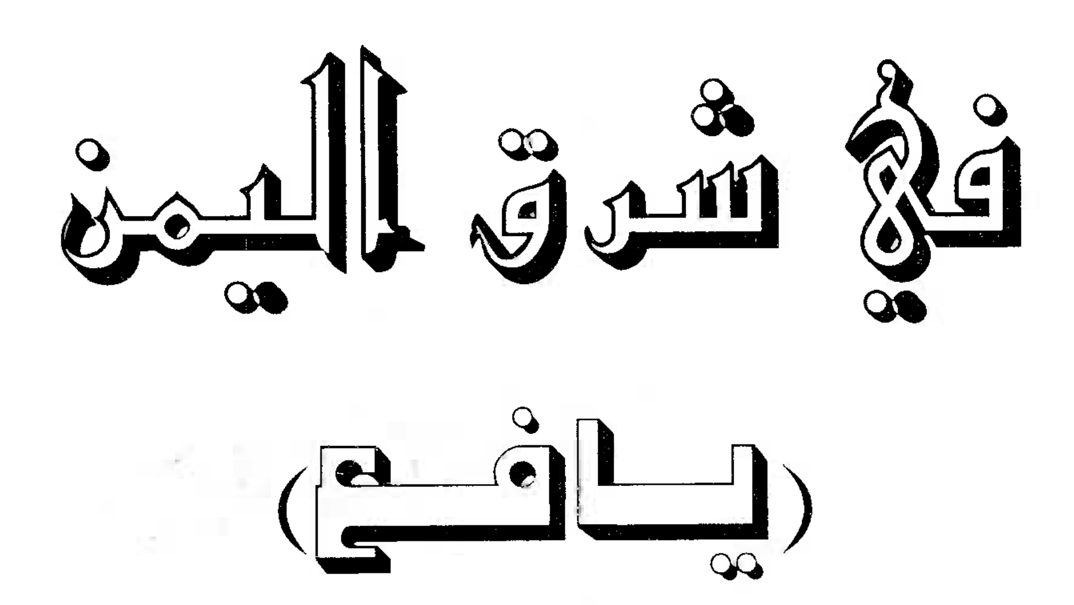




تأليف

صلاح البكري اليافعي

صلاح البكري اليافعي



تقديم وإخراج:
د.علي صالح الخلاقي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الجديدة

هذا الكتاب للمؤرخ صلاح عبدالقادر البكري، يكتسب أهميته وقيمته التاريخية في كونه أول كتاب يصدر عن بلاد يافع، حيث صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٥م، وسبق صدوره رحلة للمؤلف إلى بعض مناطق يافع في تلك الحقبة الهامة التي كان السفر فيها إلى بلاد يافع أمراً شاقاً، بل مغامرة محفوفة بالمخاطر والتعب والعناء لانعدام طرق السيارات، خاصة في مناطقها الممتدة في بطون وسفوح وقمم السلاسل الجبلية الكثيرة.

والفضل بعد الله تعالى في ذلك يعود باعتراف المؤلف نفسه في الإهداء الذي تصدر الكتاب "إلى الفاضل العصامي الكريم السيد علي عبدالله العيسائي الذي قام بأعظم قسط في إعداد الرحلة وفي طبع هذا الكتاب".

حينها كان الشيخ الفاضل علي عبدالله العيسائي، طيَّب الله ثراه، كما تبيّن صورته التي تصدرت الكتاب مع الإهداء، في عز شبابه ومطلع نجاحه كواحد من نجوم عدن المضيئة في عالم المال والأعمال، منذ أن

بدأ بها أولى خطوات نجاحه في أربعينيات القرن العشرين، حين كانت عدن محطّ الآمال، وإليها كان يشد الرِّحَال، كل طامح في دنيا العلم أو المال والأعمال، في عصر ازدهارها كواحد من أهم الموانئ العالمية.

ويكفيه فخراً أنه كان في ذلك السن المبكر أول من اهتم بدعم كتابة تاريخ يافع، في وقت لم يلتفت فيه أحد إلى هذا الأمر الهام، خاصة في تلك المرحلة التي عاشت فيها يافع في عزلة عن العالم، وظلت محرومة من التعليم ومن طرق السيارات والخدمات الصحية وغير ذلك من سبل الحياة العصرية، حتى أن رحلة المؤرخ كانت بحد ذاتها حدثاً هاماً قابله الناس بالترحاب والاحتفالات التي تخللتها الزوامل ورقصات البرع وإطلاق الأعيرة النارية لشدة شوقهم لرائحة العلم والتعليم.

وسيظل يذكر التاريخ بأحرف من نور أن المؤرخ صلاح البكري، رحمه الله، أول من اقتحم مجاهل التاريخ لهذه البلاد العريقة في ماضيها الحضاري ودوَّن انطباعاته عن زيارته، وأن صديقه رجل الأعمال الفاضل الشيخ علي عبدالله العيسائي، طيّب الله ثراه، هو صاحب السبق في دعم أول كتاب صدر عنها، وهو ما ينم عن اهتمامه المبكر في توثيق ونشر

كنوز تراثنا وتاريخنا، حيث تحمل على عاتقة تكاليف رحلة المؤرخ صلاح البكري من مصر إلى عدن ومنها إلى يافع، وكلّف أخاه حسين لمرافقة المؤلف خلال زيارته التاريخية تلك التي مكنته من تدوين انطباعاته عن أوضاع يافع وأحوالها العامة مع شذرات من تاريخها.

بل أن العيسائي سهّل أيضاً للمؤلف بعض الصعوبات التي اعترضت رحلته.. وقد اعترف البكري في كتابه أنه عند وصوله ومرافقيه إلى البيضاء في طريقهم إلى يافع قد ذهبوا إلى منزل الشيخ سالم حسين الرماح وقدموا له خطاب توصية من السيد علي عبدالله العيسائي وقد أكرمهم كثيراً وأصدر أمره بإعفائهم من الرسوم الجمركية بفضل تلك التوصية، وذكر أيضاً أنه خلال إقامته في عدن قد ظل نزيلا في دار آل العيسائي الذين احتفوا به أكثر مما يحتفي الأخ بأخيه، كما سجل ذلك في كتابه.

ولانقضاء زمن طويل على صدور الكتاب ونفاد طبعته الأولى المحدودة النسخ فقد اختفى الكتاب من التداول حتى أصبح الحصول على نسخة منه أمراً صعب المنال، بما في ذلك في رفوف المكتبات الوطنية والجامعية، في ظل مسيس الحاجة إليه من قبل المهتمين والباحثين، باعتباره مصدراً هاما يؤرخ لحقبة زمنية هامة أنقضت وأخذت

ملامحها تختفي تدريجياً من أمام ناظرينا بفعل التطورات اللاحقة والمتسارعة التي جرفت معها كثيراً من القيم والتقاليد التي كان المؤلف شاهداً عليها خلال زيارته لبلاد يافع.

ولأن الشيء بالشيء يذكر .. أعترف أنني في لقاء جمعنا بالعم علي عبدالله العيسائي في بيته في جدة في عام ٢٠١٤م بحضور نجله الأكبر محمد بن علي (أبى بدر) قد طرحت فكرت السعي للحصول على نسخة مكتملة من الكتاب والعمل على إعادة طباعته بعد تصحيح وتصويب الأخطاء المطبعية التي وردت في الكتاب، وبعض مسميات المناطق ووضع هوامش إيضاحية، ومقارنة التواريخ الهجرية لبعض الأحداث الهامة، وذلك لتكتمل الفائدة من إعادة طباعة هذا الكتاب وحتى يكون متوفراً في مكتباتنا الوطنية والعربية وينتفع به الباحثون والمهتمون، فما كان من (العم علي)، تغمده الله بواسع رحمته، إلا أن رحب بالفكرة وباركها على الفور، بل وسُرَّ لذلك أيّما سرور، وكأنَّه يستعيد حماسة شبابه لتعلقه وشغفه بالتاريخ الذي ظل ملازماً طوال حياته.

وتأخر العمل بسبب ظروف الحرب التي شهدتها بلادنا عام ٢٠١٥م.

وها هي الآن الطبعة الجديدة تصدر بعد أكثر من ستة عقود على صدور الطبعة الأولى، وبدعم من أبنائه وعلى رأسهم "أبو بدر" تنفيذاً لرغبة والدهم صاحب الفضل في انجاح رحلة المؤلف وصدور الكتاب لأول مرة، وهذا يضاف إلى بصماته الطيبة في أعمال الخير واهتماماته ورعايته لتدوين التاريخ ودعمه للتأليف والنشر وتشجعيه للتعليم منذ شبابه وحتى آخر أيامه.

وفي ختام هذا التقديم أكرر إهداء المؤلف البكري ذاته:

"إلى الفاضل العصامي الكريم السيد علي عبدالله العيسائي الذي قام بأعظم قسط في إعداد الرحلة وفي طبع هذا الكتاب".

ولا نملك إلا أن ندعو له وللمؤلف بالرحمة والمغفرة، والشكر والثناء للأخ أبى بدر وأخوانه كخير خلف لخير سلف..

والله الموفق..

أ.د.علي صالح الخلاقي

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

جامعة عدن



الشيخ علي عبدالله العيسائي، رحمه الله، كان رجل خير واهتم بتدوين تاريخنا وتراثنا منذ شبابه بدعمه لرحلة المؤرخ صلاح البكري وطبع كتابه هذا، وحتى آخر لحظات حياته.



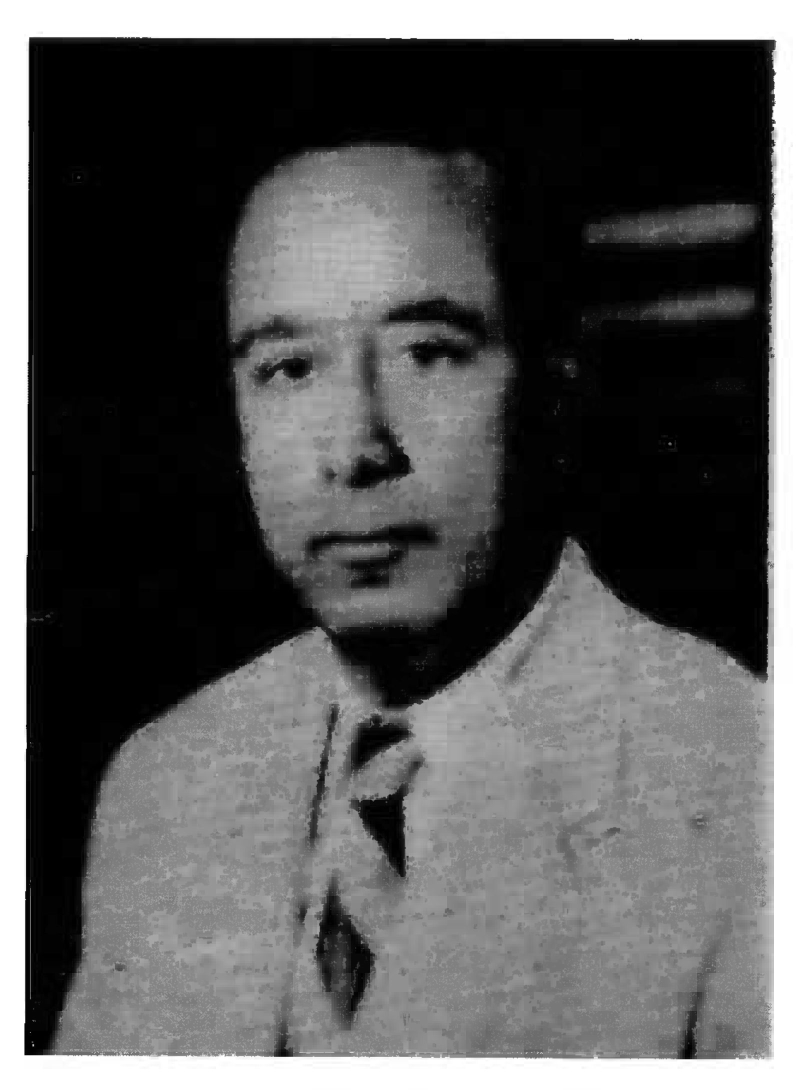
الإهداء

إلى الفاضل العصامي الكريم السيد علي عبدالله العيسائي الذي قام بأعظم قسط في إعداد الرحلة وفي طبع هذا الكتاب.

إلى شيوخ يافع وقادتهم الذين أكرموني وبالغوا في الاحتفاء بي.

إلى الأصدقاء الأوفياء وعلى رأسهم الشيخ قاسم عبدالرحمن المفلحي والسيد عمر.. الذين ساهموا في طباعة هذا المؤلف وهو أول كتاب يصدر عن يافع...

صلاح البكري اليافعي



صورة المؤلف (المؤرخ صلاح البكري)

سم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

منذ سنوات مضت وبالأصح سنة ١٩٤٧م طاف بعاطفتي نداءٌ يدعوني دعاءً خفياً لزيارة بلاد يافع وطن الآباء والأجداد. ولكن الظروف دفعتني إلى حضرموت في أغسطس ١٩٤٧م. وعدت بعد ثلاثة أشهر واصدرت كتاب "في جنوب الجزيرة العربية". بيد أن النداء ظل يطوف بعاطفتي ويجول بذاكرتي.

إن أمنيتي الكبرى أن أرى بلاد يافع على الطبيعة بعيني وأن أدرس الأوضاع كما هي كائنة وأن أدرس النظم كما هي قائمة وأن أعرف أهداف الأهالي كما رسموها بأنفسهم ولأنفسهم.

وأشكر الله جل شأنه حيث هيأ الأسباب وحقق أمنيتي، أجل ذهبت إلى يافع العليا ويافع الساحل ورأيت ودرست وعرفت في حدود ما اتسع لي من الوقت.

هالني بعض ما رأيته أو درسته أو عرفته، وليس بذي بال أن أقول للقراء الآن ان كان قد هالني قبحاً أو هالني حسناً، إنّما ذو البال إنّي وقفت على حقائق اهتز لها مني الكيان فرأيت أن أبصِّر بني قومي بها، وأن أضع أعينهم عليها، راجياً من أولئك الذين أنعم الله عليهم بنصيب وافر من الذكاء والإدراك وبعد النظر أن يلموا شعث قومهم، وأن يجمعوا كلمتهم، وأن يوحدوا صفوفهم، وأن يرشدوهم إلى طريق أقوم، وحياة أرقى وأفضل.

بيروت

ذو الحجة ١٣٤٧ هـ/ أغسطس ١٩٥٥م

من جدة إلى عدن

١ شوال ١٣٧٣هـ – الموافق ٤/٥/١٩٥٤م

أخرجت المساجد أثقالها بعد صلاة العيد، وانطلق الناس في شوارع جدة فرحين مستبشرين، وكان الصبيان يمرحون بما أخذوا من زينة وما أوتوا من نقود. وتسللت بنا سيارة السيد علي عبدالله العيسائي في تهادٍ وبطءٍ كأنها تشفق أن يزعج صوت عجلاتها أولئك الفرحين بالعيد.

انتحينا جانباً في مقصف المطار ننتظر ساعة الرحيل. ولما دنا الضحى من ختامه حلقت الطائرة بنا وراحت تشق طريقها في جو السماء، وظهر البحر الأحمر وأخذت مباني جدة تختفي شيئاً فشيئاً. جلسنا صامتين، ولكن صديقنا السيد علي عبدالله العيسائي انبرى للحديث، ولعله أراد أن يدخل إلى نفسي السرور، وكنت غارقاً في لجة عميقة من التفكير، فانخفض صوته تدريجياً ، واختفت الكلمات بين شفتيه وأطبق السكون مرة أخرى.

لم أكن نائماً ولا حالماً ولا هائماً حين كان السيد العيسائي يحدثني وإنّما أنا يقظ كأقوى ما تكون اليقظة، حاضر الذهن، كأحسن ما يكون حضور الذهن. وكل ما في الأمر إنّي كنت أفكر طويلاً في الرحلة إلى يافع وما سيعترضني من عقاب كأداء وطُرُقٍ ملتوية شاقة.

دخلنا حدود إرتيريا وبدت جبالها المكسوة بالأعشاب تناطح السحب وسرعان ما هبطت درجة الحرارة. يا لها من مناظر جميلة، هضاب طاعنات في السماء ووديان عميقة خضراء ومنازل بيضاء جاثمة على سفوح الجبال، كأنها ركامات الجليد.

هبطنا مطار أسمرة. الجو بارد والنسيم عليل، وكل شيء حولنا جميل. وبعد أن أخذنا قسطنا من الراحة ركبنا الطائرة ودارت محركاتها ودرجت فوق أرض المطار، ثم ارتفعت حتى ارتقت السحب رويداً رويداً ولم يرَ الركاب سوى قطع من السحاب تتراءى عن اليمين وعن الشمال، ولم نسمع سوى زئير الطائرة يهزم الفضاء يدوِّي فيصم الآذان.

اختفت أسمرة الجميلة، واجتزنا البحر الأحمر وظهرت جبال جرداء، وقفار غبراء. وبعد الساعة الخامسة مساء ظهرت لنا عدن بضواحيها المتباعدة، وظهر المطار، وأخذت الطائرة تحوم فوقه نحو نصف ساعة فقد توقفت إحدى عجلاتها عن الحركة، ولكن المهندس استطاع بمهارته أن يبعث الحركة فيها، ولولا لطف الله عز وجل لحدثت كارثة شنيعة.

عدن

وعدن محطة عامة لتموين البواخر، وبها أكبر سوق تجاري في شبه الجزيرة العربية، فهي التي تموِّن الإمارات الجنوبية كحضرموت ولحج والعوالق ويافع، كما أنها تمد أسواق سواحل أفريقيا الشرقية بمختلف السلع. وليس هناك في الجزيرة العربية مدينة تضاهي عدن وتنافسها من حيث النظام ونظافة الشوارع وكثرة الملاهي. ومعظم الأفلام التي تعرض في دور السينما مصرية وهندية، والإقبال عليها شديد، والحر لا يطاق، فقد كنت في الأيام التي قضيتها هناك أنام تحت هواء المروحة. والماء في عدن لا يستسيغه إنسان شرب من ماء النيل أو من ماء آخر يوازي ماء النيل في العذوبة.

وسكان عدن لا يزيدون على مائة وخمسين ألف نسمة.

والحياة الأدبية في عدن تسير إلى الأمام بخطوات واسعة بفضل شبابها المثقف، وكل الصحف أسبوعية، وللمطبوعات العربية والصحف والمجلات المصرية سوق رابحة. وهناك مدارس ابتدائية وثانوية عربية وإنجليزية وكلية إنجليزية أنشئت على أحدث طراز، بها قسم داخلي يضم عدداً كبيراً من أبناء الإمارات المحمية.

ولعدن بعثات علمية في مصر والعراق والسودان.

وهناك جمعيات إصلاحية وخيرية ونوادٍ أدبية ورياضية.

ومن المباني الأثرية في عدن "الصهاريج" والشيء العجيب ضخامة أحواضها واتساعها العظيم، فهي تحوي من الماء أكثر من ثلاثين مليون جالون، وهي جافة. ولقد أنشئت بواسطة ادارة حربية فنية، وتاريخ إنشائها مجهول.

احتلال الإنجليز لعدن

عندما احتلت الحملة الفرنسية مصر سنة ١٧٩٨م بدأ اهتمام الإنجليز بجنوب الجزيرة العربية، فقد احتلوا "بريم"[١] سنة ١٧٩٩م ليغلقوا البحر الأحمر في وجه الفرنسيين، ثم أخلوها لرداءة جوها وقلة مائها، وولت السياسة البريطانية وجهها شطر عدن واستطاع السير هوم بوبيهام في ١٨٠٢م أن يعقد اتفاقاً تجارياً مع سلطانها العبدلي.

---

[١] - وردت في الأصل (بريد) والصحيح بريم، وهي جزيرة ميون.

والإنجليز لم يجدوا مكاناً أصلح لتموين بواخرهم من عدن، فاتفقوا في عام ١٨٢٩م مع سلطان لحج على استعمال عدن كمحطة للفحم.

واستغل الإنجليز حادثة السفينة "داريا دولت أبرع استغلال، فقد جنحت هذه السفينة في يناير سنة ١٨٢٧م على مقربة من ميناء عدن، وكانت ملك السيدة بيجيم بنت أخت النائب كلاناتيك، وكان العلم الإنجليزي يرفرف عليها، وكان بها شحنة قُدِّرت بعشرين ألف جنية.

جاءها جماعة من الأعراب وسطوا على البضائع ونهبوا ركابها، وادّعى الإنجليز أنه كان على رأس المهاجمين أكبر أبناء سلطان لحج، وعلى إثر ذلك قدَّم السير روبرت جرانت حاكم بومباي تقريراً هاماً جاء فيه ما يأتي:

"إن تأسيس خطوطنا البحرية في البحر الأحمر وتكوين أسطول صغير من البواخر المسلحة تجعل من الضروري إيجاد محطة تابعة لنا على ساحل بلاد العرب، كما هي الحال في الخليج العربي، ثم أن الإهانة التي ألحقها سلطان عدن بنا تجعلني لا أشك لحظة في شدة حاجتنا إلى امتلاك عدن".

وفي ٢ فبراير سنة ١٨٢٨م تم الاتفاق بواسطة الكابتن هينز على أن يتخلى السلطان عن عدن للإنجليز في مقابل مبلغ كبير من المال، ولكن حدث ما لم يكن في حسبان الكابتن هينز إذ عارض ابن السلطان في الاتفاقية التي عقدها أبوه.

وفي الوقت الذي استعد فيه الكابتن هينز للنزول بجنوده، علم أن مؤامرة دبرت له حتى يستعيد السلطان الاتفاق الذي مَهَرَهُ بخاتمه، وأن السلطان نفسه وقع تحت تأثير ابنه وأقاربه وأنه قرر المقاومة بكل ما لديه من قوة فأبحر هينز إلى بومباي.

وعندما عاد هينز في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٢٨م تحرّش العرب بالسفن الإنجليزية، فتراجع هينز إلى جزيرة صغيرة ينتظر الإمدادات حتى وصلت إليه في ١٦يناير سنة ١٨٢٩م وفي خلال يومين احتل عدن.

ولا شك أن احتلال الإنجليز لعدن ضربة موجهة إلى محمد علي باشا والي مصر لإرغامه على الانسحاب من اليمن. وفي الوقت الذي كان إبراهيم يكن باشا قائد الحملة المصرية في اليمن يعمل على توطيد الحكم المصري، كان الكابتن يتصل بمشايخ القبائل المجاورة لعدن والتي خضعت للحكم المصري متودداً إليهم بالهدايا والمرتبات، وشرع يحرضهم على عدم دفع الزكاة المفروضة عليهم لحكومة اليمن المصرية، ولقد نجح إلى حد كبير.

وخاف محمد علي باشا أن يقوى نفوذ الإنجليز ويمتد سلطانهم فكتب إلى إبراهيم يكن يستفسر عن صلة الإنجليز بالعرب، ويطلب إليه عدم السماح بإرسال أحد الصناع وأرباب المهن من مخا[1] إلى عدن.

وقبل أن يتسلم إبراهيم يكن الأمر السامي بعث إلى محمد علي برسالة يقول فيها:" إن القائد هينز الذي احتل عدن مقيم بجوار الأماكن التي ألحقت حديثاً بالحكومة المصرية، وقد أخذ يقوى مشايه بعض المراكز والقرى، ويتودد إليهم، ويجتذب قلوب الذين يتبعونه بالكسوة والمرتب، وأن سلوكه هذا يؤدي إلى حدوث خلل في المصالح المصرية في اليمن".

---

[1] - وردت في الأصل "نحا" والصحيح مخا.

ونشط إمام صنعاء عبد الناصر لدين الله في العمل لتقوية العلاقة بينه وبين محمد علي باشا، فقد أوفد رسولاً من قبله هو السيد عبدالرب إلى أحمد يكن باشا حاكم الحجاز ليسهل له السفر إلى مصر للتفاهم مع محمد علي.

وما كانت تلك الحركات لتخفى على السياسة الإنجليزية التي بثت عيونها في اليمن خوفاً من انضمام اليمن كله إلى الإمبراطورية العربية الكبيرة التي كونها محمد علي، ولا سيما أن بعض البلاد العربية بدأت تتجه إلى مصر.

فكانت ترد إلى محمد علي تقارير من حضرموت وغيرها يطالب أصحابها بالانضمام إلى الحكومة المصرية التي بدأ ينشئها إبراهيم يكن في اليمن، وكان أهم هذه الرسائل رسالة من حضرموت بدار المحفوظات الملكية بعابدين يطالبون فيها بإرسال موظفين وجنود لتنظيم أحوال حضرموت وإعادة الأمن إليها، وكان على رأس موقعي هذه العريضة علي بن عمر بن سقاف وسالم بن حماد باعبيد ومحسن بن علوي.

ووردت تقارير على وزارة الخارجية البريطانية من قناصلها في الشرق بأن محمد علي سيرسل جيوشه لاحتلال مدخل البحر الأحمر عند باب المندب وسواحل حضرموت، فكتب بلمرستون إلى القنصل الإنجليزي في مصر الكولونيل كامبل ليقابل محمد علي ويخبره بأن مثل هذه الخطوة لا ينظر إليها بعين الرضا في انجلترا أو في الهند، وأكد محمد علي لكامبل أنه لا يفكر في التوسع خارج البحر الأحمر، ولا ينبغي امتداد أملاكه شرق اليمن.

وعندما تعقدت المشاكل بين محمد علي وسلطان تركيا، واستحكم النزاع وثارت الحرب طلب بلمرستون من محمد علي جلاء الجيوش المصرية عن اليمن بأجمعه، فأجاب محمد علي "سأضع هذا الطلب موضع النظر عندما تفرغ الدول من بحث المسألة الشرقية".

ولقد ذكر الكولونيل كامبل في رسالة إلى بلمرستون أن محمد علي لم يذعن لهذا التهديد، وأراد اكتساب الوقت بقوله:"ولست أستطيع في الوقت الحاضر اتخاذ اجراءات للجلاء عن اليمن، ولكني سأصدر أمراً إلى بوغوص بك بإرسال رد على طلب وزير الخارجية الإنجليزية".

وشاءت السياسة الدولية إذ ذاك أن تقف موقف العداء من محمد علي فاضطر إلى سحب جيشه من اليمن في فبراير سنة ١٨٤٠م وتسلم أقسامها المختلفة بعض شيوخها الأحرار.

وهكذا خدمت الظروف الإنجليز فوطّدت أقدامهم في عدن.

من عدن إلى يافع

الثلاثاء ٧ شوال

كان الحر لافحاً حين حلقت بنا الطائرة من مطار عدن إلى مكيراس ولقد اكتظت على سعتها بالركاب من مختلف القبائل العربية التي تقيم في المحميات الجنوبية.

واتخذ رفيقنا قحطان مكانه في الطائرة واضعاً بندقيته بين رجليه كجندي باسل في ساحة القتال، ويظهر أنه لم يسافر جواً من قبل فعلى وجهه مسحة من الدهشة والحيرة.

أما الرفيق الآخر عبد أحمد الفردي فكان كثير التلفت يمنة ويسرة والابتسامة لا تفارق شفتيه، ولعله كان يحلم بلقاء أهله في يافع الذين انقطع عنهم ردحاً من الزمن.

وكنت قابعاً في مكاني وعلى يساري شباك الطائرة أرسل النظرات من خلال زجاجه السميك.

كانت أول نظرة ألقيتها على جبال يافع فيَسَّر لي ذلك أن أتعرف إلى معالم سطحها بشيء من الوضوح، وكانت الطائرة على ارتفاع يمكننا، إلى حد ما، من تبيُّن الأشياء.

الجبال ترتفع من الجنوب ارتفاعاً مباشراً وكأنها ترتقي في ثلاث درجات ارتقاءً مصعداً صعباً، لكنها تنحدر نحو الشمال الشرقي انحداراً تدريجياً فيه هون ولين. وتكثر في هذه الانحدارات الأودية وترى الأعشاب القصيرة التي تظهر عقب الغيث.

وحيث تتكون وهدات متسعة يغزر الكلأ إذ تتجمع فيها المياه وتظل مدة أطول تغذي هذه الأعشاب بعد انقطاع المطر في الشتاء. وكلما اتجهنا شرقاً تقل الحشائش، وتمعن المرتفعات والتلال في القحولة بحيث لا تعود تصلح للإنبات.

مكيراس

وصلنا مطار مكيراس بعد نصف ساعة، وشعرنا عند نزولنا من الطائرة بجو معتدل ونسيم عليل، ولا غرو فالمطار المتواضع يقع على سطح جبلٍ عالٍ، وهناك دار مربعة الشكل على سطحها أكياس من الرمل ومن خلفها يجثم عدد من الجنود المسلحين يحرسون المطار من هجمات العواذل الذين يعارضون احتلال الإنجليز لبلادهم.

وأقبل عدد من الناس بحميرهم القصيرة ليحملوا المسافرين عليها إلى حيث يذهبون. وهرعنا إلى سيارة أجرة، وكانت السيارة الوحيدة هناك، وحشر صاحبها الركاب فيها حشراً اضطر البعض للركوب على سطحها. واندفعت بنا ببطء في طريقها إلى البيضاء وكانت تميل ذات اليمين وذات الشمال، على الرغم من أن الطريق غير وعر ولكن

السيارة بلغت من الكبر عتياً فهي تترنح في سيرها حيناً وتتوقف أخرى، وتارة تندفع عند الانحدار فتعتري الركاب موجة من الخوف والفزع.

مدينة البيضاء

وأخيراً وبعد ساعتين وصلنا البيضاء سالمين فشكرنا الله على ذلك، وقد ذهبنا إلى منزل الشيخ سالم حسين الرماح وقدمنا له خطاب توصية من السيد علي عبدالله العيسائي ونسخة من كتابنا "في جنوب الجزيرة العربية" ولقد أكرمنا كثيراً وأصدر أمره بإعفائنا من الرسوم الجمركية.



سيارة عليها رجال وبجانبها أيضاً

والبيضاء مدينة عليها مسحة من الجمال ومنازلها عالية، وتقع على تل مرتفع وعلى مقربة منها مزارع الذرة.

ولقد انتهزت الفرصة فقمت بجولة في المدينة زرت خلالها المستشفى والمدرسة الجديدة.

ولم نطل المكث فقد غادرنا البيضاء الساعة الخامسة مساء، وحوالي الساعة الثامنة وصلنا بلد الزاهر بعد ان اجتزنا طريقاً ممهداً صالحاً لسير السيارات.

الزاهر

استقبلنا الشيخ سالم عبدالقوي الحميقاني حاكم الزاهر بما عُرف عنه من الكرم والنبل، وقضينا في منزله ليلة جميلة ممتعة، والشيخ الحميقاني رجل متحدث لبق عديم الثرثرة، بعيد النظر، وهو من الشخصيات البارزة التي تنتفع بهم حكومة اليمن إلى حد كبير. واتباعه يدينون له بالطاعة العمياء. والزاهر بلدة متواضعة وعلى مقربة منها أراضٍ خصبة تُروي بماء الآبار الأرتوازية. والذرة أهم المزروعات.
وفي الصباح غادرنا الزاهر إلى يافع وأبى الشيخ الحميقاني إلاّ أن يركبنا حصانه، زيادة في التكريم، إلى آخر حدود الزاهر.

داخل حدود يافع

وعند عينة ظهرت أراضي يافع بوضوح. الطريق وعر كثير التلال والتعاريج والأخاديد الصخرية، وظهر جبل "حِلْيَن" طاعناً في السماء، وعلى سطحه يقوم قصر السلطان محمد صالح بن هرهرة ذو الطبقات العالية.

ومقر آل هرهرة المحجبة يقع في بطن وادٍ بالقرب من مسجد النور، ولكن حين حدث خلاف فيما بينهم انتقل السلطان صالح بن عمر إلى جبل "حِلْيَن" وبنى قصره الذي يقع على هذا الجبل. وقد أُغتيل السلطان صالح في هذا القصر في فبراير ١٩٤٩م بِيَدٍّ أبناء عمومته.

استمر كفاحنا مع الطريق الوعر ساعات متتالية داخل حدود يافع. وفي الساعة الثانية مساء وصلنا "خيلة" وأخذنا قسطاً من الراحة في منزل أحد السكان.

وخيلة قرية متواضعة مبنية من الحجر وتقع على تل صخري مرتفع وسط الوادي وحولها مزارع الذرة والقات.

القات

ولأول مرة أرى شجر القات الذي كنت أسمع عنه كثيراً. وهو دائم الخضرة، أوراقه مستطيلة مُدببة ولا يرتفع عن سطح الأرض أكثر من سبعة أمتار. ولم يكن معروفاً في يافع منذ ثلاثين عاماً.

وقد انتقلت زراعة القات من الحبشة إلى اليمن ومن هذه انتقلت إلى يافع وما جاورها من الإمارات الجنوبية ما عدا حضرموت. ومضغه ليس تسلية أهل اليمن فقط بل وأهالي يافع وعدن ولحج وغيرها. ولقد أحسنت حكومة حضرموت حين منعت استيراده وزراعته بحضرموت.

وتجارة القات رابحة لكثرة عشاقه. والمولعون به يصرفون أكثر مما يصرفه المدخنون.

وحين جئت عدن للمرة الأولى سنة ١٩٤٧م مضغت ورقة منه مدفوعاً بحب الاستطلاع فشعرت أنه قذارة، ولكن عندما يتعوده الإنسان يشعر بنكهة غريبة تدوم ما دام الشعور غير مفقود. وهو كما يزعم بعضهم ينبه الشعور ويرهق الذكاء. ونتائجه لا تدوم إلاَّ وقتاً قصيراً.

وأحب الأوقات لتعاطيه هو بعد الظهر. يذهب كل واحد إلى مكان الاجتماع حاملاً معه حزمة من القات. وبعد حوالي ساعة تبدأ النكت والقصص. ويخوض بعضهم في السياسة فينتقد سياسة تشرشل وايزنهاور، ويتمنى البعض من أعماق قلبه بعث ألمانيا من جديد. ويتحمس البعض الآخر للقضايا العربية فيسرد آماله وأحلامه في جامعة الدول العربية، بينما يعارضه آخرون في هذا الاتجاه.

وهكذا يستمر النقاش والجدل في السياسة وفي غير السياسة ساعات متتالية من الساعة الثانية مساء إلى ما بعد غروب الشمس. وللقات علاوة على تجارته الرابحة منفعة ضئيلة قصيرة الأمد، فعندما يعتري الأعصاب شيء من التخدير يندفع عشاقه في أحلام اليقظة "Day dreams" وينسون إلى حد ما، ما اعترضهم في أول النهار من متاعب ومن هَمٍّ وغَمٍّ، ففي تعاطيه شيء من التنفيس. وهو في هذه الناحية يشبه إلى حد كبير المشروبات الروحية. أما أضراره فتنحصر في ثلاثة :

أولاً : ضياع خمس ساعات من الزمن على الأقل في كلام فارغ لا فائدة فيه للمجتمع. فهو من هذه الناحية أكثر ضرراً من الخمرة لأن عشاق الخمرة لا يضيعون من وقتهم حين يشربون أكثر من ثلاث ساعات.

ثانياً : الخسارة المادية وبخاصة على المعسرين وما أكثر عشاق القات المعسرين الذين يقدمون شراء القات على حاجيات المنزل الضرورية.

ثالثا : الناحية الصحية فهو يجلب الامساك والصداع ويطرد النوم. ولعل هناك أضراراً أخرى يعرفها الأطباء.

مدينة قريش

من خَيْلة بعثنا رسولاً يحمل خطاباً للشيخ عبدالله بن محمد دينيش البكري، عاقل بني بكر. وفي الساعة الرابعة مساء وصلنا بلدة بني بكر وتسمى قرية قريش. وعند مدخل المدينة استقبلنا من بني بكر أربعمائة مسلح بحفاوة بالغة وأطلقوا مئات الأعيرة النارية ترحيباً بنا وألقيت في (الزامل) قصائد شعبية. وقد انتهزت الفرصة حيث ألقيت كلمة على القوم دعوتهم فيها إلى الاتحاد والتكاتف ونشر التعليم، ثم ذهبنا إلى منزل عاقل بني بكر.

وبلدة بني بكر أكبر مدينة في يافع وتتكون منازلها المبنية من الحجر الجيري الأسود من طابقين إلى أربعة وتقع على سفح جبل وعلى حافة وادي حطيب ذي المنظر الرائع.

وكنا قد أردنا الذهاب صباح الخميس إلى آل خُلاقة[1] ولكن الشيخ علي ناصر البكري أبى إلاَّ أن يستضيفنا يوماً كاملاً في داره. فنزلنا عند رغبته وقضينا في داره سهرة ممتعة تحدثنا فيها في شتى المواضيع ؛ والشيخ علي ناصر متحدث واسع التفكير.

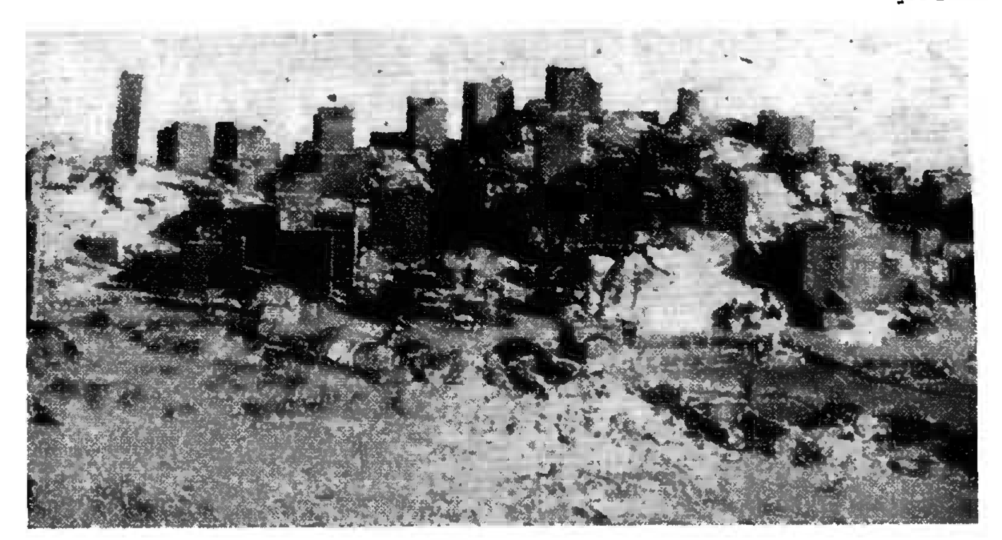
---

[1] وردت في الأصل "الخلاقة" والصحيح خُلاقة.

بلدة خُلاقة

وبعد صلاة الجمعة غادرنا بني بكر إلى بلدة خُلاقة وأخذنا حماراً وما خف حمله إذ لا بد من العودة إلى بني بكر في طريقنا إلى الشبر بلدة الحضارم.

الطريق بين بني بكر وخُلاقة ممهدٌ وقد قطعناه سيراً على الأقدام في أقل من ساعة. وقد فضلت المشي على الركوب لاعتدال الجو وسهولة الطريق. وعلى حافة وادي حطيب وقفنا برهة نمتع أنظارنا بتلك المناظر الخلابة. وينبع وادي حطيب من جبل العر ويمر في يافع ويصب في وادي بنا، وفي بنا يجري الماء إلى أبين طوال العام ويقل في الشتاء.



بلدة خلاقة

وفي بطن وادي حطيب حقول مغطاه بأشجار البُن الخضراء. وصلنا بلدة خُلاقة فاستقبلنا حوالي ثلاثمائة مسلح وأطلقوا مئات الأعيرة النارية مبالغة في الترحيب بنا

وألقيت قصائد شعبية في (الزامل) ولقد ألقيت كلمة دعوت القوم فيها إلى الاتحاد والتعاون ونشر التعليم.

نزلنا ضيوفاً في دار الشيخ القاضي محمد علي الخلاقي وهو من أطيب الناس نفساً وأصفاهم قلباً.

وفي الصباح أغارت أسراب من الجراد على المزارع المحيطة بخُلاقة فخرج كثير من النساء والرجال والولدان لطرده من الزرع. ولحسن الحظ لم تكن الإغارة عنيفة ولم تطل إقامته فقد رحل صوب الجنوب الغربي.

وغارات الجراد على جنوب الجزيرة العربية معروفة منذ عهود واغلة في القدم. وتهتم الدول الزراعية بتحركات جيوش الجراد. وقد عقدت لذلك مؤتمرات دولية في روما عام ١٩٣٢م والرابع في القاهرة عام ١٩٣٦م والخامس في بروكسل عام ١٩٣٨م.

وأهم ما قرره هذا المؤتمر تعاون البلدان المجاورة للدول التي يغزوها الجراد في القضاء عليه.

وللجراد مناطق يتوالد فيها قبل إغارته على جنوب الجزيرة بما فيها اليمن، وهي شرق الأردن وغرب السودان وشمال أفريقيا. ويتجدد اتجاه أسراب الجراد وفقاً لهبوط الضغط الجوي ونزول الأمطار واتجاه الرياح الشديدة.

ولا تزال أسباب هجرة الجراد غير معروفة، ولوحظ من المشاهدات العلمية أن الجراد يتغذى أثناء الهجرة مما يزيد في شراهته عند وصوله للأراضي المنزرعة.

تضع انثى الجراد نحو ٤٠٠ بيضة وتفقس بعد ثلاثة أسابيع وتخرج الصغار العديدة الأجنحة التي يمكنها السير في صفوف متجمعة مسافة خمسة كليو مترات يومياً. وتسمى هذه الصغار في حضرموت (الدّباء).

وكان الجراد ولا يزال في البلدان المتأخرة يقاوم بالدق على الطبول والصفائح. وتقاومه وزارات الزراعة في البلدان الراقية بقاذفات اللهب والطعم السام المكون من خلات النحاس الزرنيخية بعد خلطها بالردة، وقد أنشئ لهذا الغرض نوع خاص لمكافحة الجراد بوزارة الزراعة بمصر.

وتمنح وزارة الزراعة في لبنان نصف ليرة لكل فرد يبيد أقة من الجراد مما يساعد الأهالي ويشجعهم على المساهمة جدياً في المقاومة.

ويأكل بعض الناس الجراد. وبتحليل الجراد كيماوياً ثبت أنه غني بالعناصر الغذائية، فهو يحوي ١٧٪ من الدهن و٦٣٪ من البروتين و١٠٪ ماء اليافا ومعادن و١٠٪ ماء. فهو أغنى في عنصر البروتين من الدجاج والسمك واللحم.

بعد أن تناولنا الغداء ظهر يوم السبت ١١شوال بمنزل الشيخ القاضي محمد علي الخلاقي عُدنا إلى بني بكر ونزلنا في دار الشيخ عبدالرحمن بن عز الدين البكري فاحتفى بنا أيّما احتفاء..

الصلح بين بني بكر وخلاقة

وبين بني بكر وخلاقة حرب طال أمدها ولكنها حرب شريفة نزيهة فليس هناك غدر ولا خيانة من أحد الفريقين، فعندما يتقابل الفريقان ويقتتلان يعلنان الهدنة بعد حين فيأخذ كل منهما قتلاه أو جرحاه من الميدان دون أن يعتدي أحد على آخر. وقد يقوم صلح بين الفريقين وفي أثناء الصلح يزور كل منهما الآخر كأن لم يحدث شيء بينهما، وكثيراً

ما يذهب بعض رجالات خُلاقة إلى بني بكر لطلب مد الصلح أو الهدنة فيحتفي بهم بنو بكر ويقبلون طلبهم. ولقد رأيت – والباقي من الصلح شهران – أن أعقد صلحاً بين الفريقين. لذلك جمعت الشخصيات البارزة من بني بكر في دار آل عز الدين ووفقت لعقد الصلح بين الفريقين يبدأ من أول صفر سنة ١٣٧٤هـ [٢٩سبتمبر١٩٥٤م]،وينتهي في آخر محرم سنة ١٣٧٥هـ[١٨سبتمبر١٩٥٥م].

قبيلتا الفردى وريَو

تقع قبيلتا الفردي وريَو شمال بني بكر وخلاقة وهم الحد الفاصل بين اليمن ويافع إذ يفصلهم عن اليمن وادي حمرة الذي يتصل بوادي حطيب في وادي بَنَا. وقد حاولنا زيارتهم ولكن لسوء الحظ لم تسمح لنا الظروف.

ويبلغ عدد قبيلة الفردي نحو ٢٠٠٠ مسلح وهم من يافع الضُّبَي، أما عدد قبيلة ريو فلا يقل عن ٩٠٠ مسلح وهم من يافع الموسطة.

الأحد ١٢ شوال

في الساعة الثامنة صباحاً غادرنا بني بكر فودعونا بقلوب ملؤها الاحترام والتبجيل. وهبطنا بحميرنا في نقيل (عقبة) بني بكر ذات الانحدار الشديد، ولاتزال في العقبة بقايا أحجار مرصوصة رصاً محكماً لطريق قديم قيل إن الذي أنشأه الشيخ

أبرز الشخصيات في يافع، ذكيٌّ نافذ الذكاء ولكنه هادئ في الوقت نفسه، حليم شديد الحلم لا يعرف الطيش ولا التعجل ولا الاندفاع، وكثيراً ما تعتبر آراؤه حلاً للمشاكل المعقدة والقضايا الغامضة، وكنا أردنا الرحيل صباح الثلاثاء، ولكن مضيفنا منعنا عن ذلك وأصَرَّ في المنع وأقسَم أن نبقى يوماً آخر ولم نجد بداً من التسليم لإرادته على الرغم من ضيق الوقت.

مسجد النور

غادرنا ذي صراء صباح الاربعاء ١٥ شوال، وأبى الشيخ صالح بن سالم ابن عاطف جابر إلاَّ أن يرافقنا إلى مسجد النور حيث يقيم آل الحريبي. والطريق ممهد يخترق سهلاً صخرياً قطعناه في نصف ساعة سيراً على الأقدام.

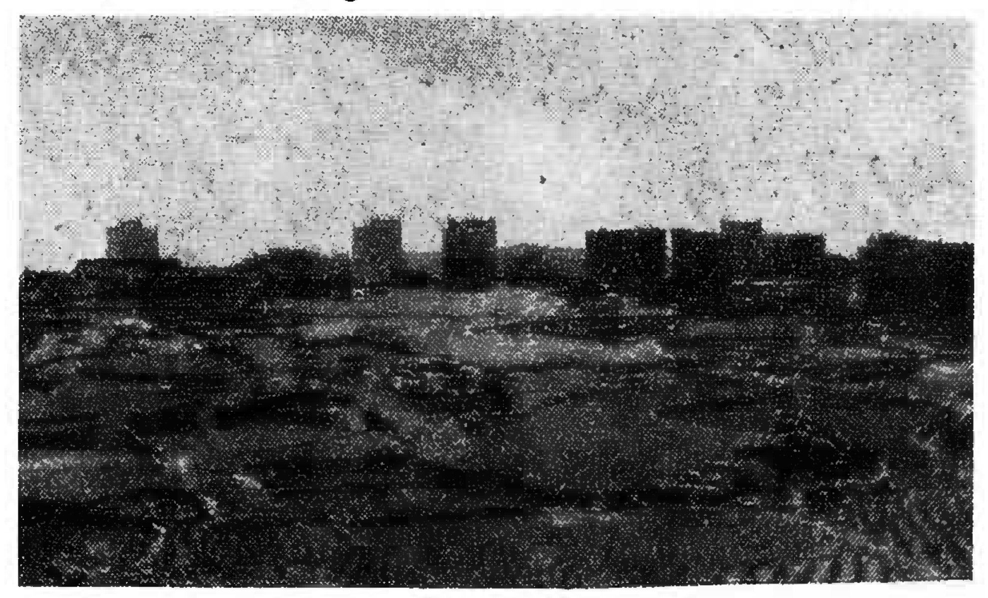


آل الحريبي

ولقد استقبلنا آل الحريبي بكل حفاوة وأطلقوا الأعيرة النارية ترحيباً لقدومنا.

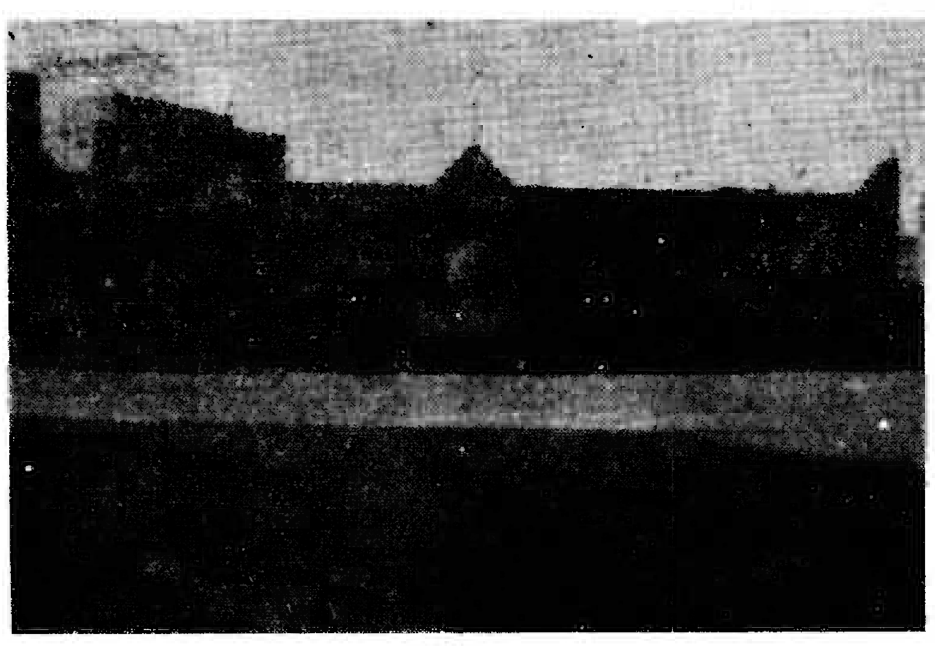
نزلنا في دار الشيخ غالب بن عبدالله شيخ الحريبي، ثم انتقلنا إلى منزل الشيخ حسين الحريبي.

ومسجد النور بلدة تتكون من مجموعة من المنازل العالية يحيط بها أراضٍ زراعية خصبة وعلى مقربة منها تقع مدينة عَرْب[1] الأثرية التي يرجع عهدها إلى ما قبل الإسلام، وقد أثَّرت فيها عوامل التعرية فمحت معالمها، ولا تزال هناك مجموعات من الأحجار متناثرة وهي بقايا بيوت كانت آهلة بالسكان، وبالقرب من دار الشيخ علي بن حسين الحريبي توجد مقابر أثرية منحوتة في الصخر، ومما تجدر الإشارة إليه أن اتجاهها إلى غير القبلة يدل على أنها مقابر قديمة ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام.



بلدة مسجد النور

[1] ـ وردت في الأصل "أرب" وهو خطأ، والموقع ليس مدينة كما ذكر البكري وإنما جانب من البلدة.



حائط

زرنا مسجد النور الذي سُمّيت البلدة باسمه والذي بُني سنة ١٠٨١هـ[1] حين كانت يافع خاضعة لليمن. والمسجد مبني من الحجر ولذلك لا يزال سليماً ويستعمل للصلاة، وفي جانب منه شاهدت جمعاً من التلاميذ والتلميذات وبينهم معلمهم يعلمهم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والدين. ولقد سررت لهذا المشهد الذي هو الأول من نوعه في يافع، فالبنات يتعلمن مع البنين جنباً إلى جنب، وسررت أكثر لاهتمام بعض الآباء بتعليم بناتهم، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وبلدة مسجد النور تتوسط بلاد يافع العليا، ولذلك اتخذها الإمام القاسم بن محمد مقراً لحكمه. ولا تزال الدار التي اتخذها مقراً للإدارة قائمة حتى الآن.

---

[1] - بُني المسجد سنة ١٠٨٤هـ، وليس كما ذكر البكري ، ويحتمل أن المسجد والتسمية قديمان، وأن القاسميين جددوا بناء المسجد على طرازهم المعماري.[انظر: الموسوعة اليافعية، تأليف:نادر سعد العمري، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، ط١، ٢٠١٥م، م/٦، ج/٨، ص١٢٠٥].

وفي صباح الخميس ١٦ شوال، وقبل أن نرحل إلى القُدْمَة جاءنا رسول من السادة آل هرهرة سكان المحجبة يطلبون زيارتنا لهم، ولقد وعدتهم بالزيارة عند العودة من القُدْمَة إذ أني قبل ذلك أرسلت خطاباً لشيخ الموسطة بالزيارة في يوم الخميس ولذلك لم أستطع تغيير أو تعديل الرحلة. ولكن آل هرهرة أوّلوا هذا الوضع تأويلاً آخر، إذ ظنوا أن زيارتي للقدمة قبل المحجبة إهانة لهم لأن المحجبة أقرب لمسجد النور من القُدْمَة ولذلك أرسلوا رسولاً آخر إلى القُدْمَة يعتذرون عن قبول زيارتنا لهم لغياب عظمة السلطان.

سوق الصِّيرة

غادرنا مسجد النور الساعة الثامنة صباحاً سيراً على الأقدام إذ أن الطريق ممهدة لا عِقاب فيها ولا تلال، وفي الساعة التاسعة وصلنا الصيرة وكانت مزدحمة بالناس، إذ وافق قدومنا يوم السوق التي تقام يوم الخميس من كل أسبوع، فتجتمع فيه فخائذ كثيرة من الموسطة وغيرهم من قبائل يافع وتُعرض فيه أنواع مختلفة من السلع وهي أشبه بمؤتمر أسبوعي. لذلك ينتهز شيخ الموسطة الشيخ أحمد بن أبي بكر النقيب[1] هذه الفرصة فيجمعهم في ميدان السوق ويتحدث إليهم فيما يصلح شأنهم ويرفع مستواهم.

---

[1] ـ قُتل غدرا بمنزله يوم ١٠ يناير ١٩٦٣، ولي كتاب عنه بعنوان (الشيخ أحمد ابوبكر النقيب:حياته واستشهادة في وثائق وأشعار) صدر عام٢٠٠٧م.

لقد استقبلنا في الصيرة أكثر من ألف مسلح من فخائذ الموسطة وغيرهم وأطلقت آلاف الأعيرة النارية ترحيباً بقدومنا، وتنافس الشعراء في إلقاء القصائد أثناء سير الموكب (الزامل).



جانب من قبائل التي احتشدت لسماع خطبة المؤلف في سوق الصيرة

وفي ميدان الصيرة حيث تحتشد الجموع الغفيرة وقف سيد الموسطة الشيخ أحمد أبو بكر النقيب وقدمني لهم في كلمة مختصرة جمعت فأوعت. ووقفت بعده وشكرت القوم على ما أظهروه نحوي من الاحترام والتقدير وما قاموا به من الحفاوة والتكريم، وانتهزت هذه الفرصة فأوضحت لهم ما تعانيه بلاد يافع من جهالة عمياء وتأخر شنيع في جميع مرافق الحياة ودَعَوتهم إلى جمع الكلمة ولم الشَّعث وتوحيد الصفوف ونشر التعليم.

ذهبنا بعد ذلك إلى منزل قاضي الصيرة الشيخ عبدالباقي بن سالم الحوثري وكان غائباً ولكن أخاه الشيخ سعيد سالم استقبلنا بالنيابة عنه، وبعد أن شربنا القهوة اليافعية ذهبنا

إلى القُدْمَة وأبى سكانها إلاَّ أن يستقبلونا بإطلاق الأعيرة النارية مع أنهم كانوا في مقدمة الذين استقبلونا في سوق الصيرة. والمسافة بين الصيرة والقُدْمَة نحو ربع ساعة. والقُدْمَة عاصمة الموسطة وتقع على تل صخري منيف وتحيط بها مزارع الذرة وقليل من نبات القات ترويها الأمطار التي تسقط صيفاً؛ وقد يستعينون في ري الأراضي بمياه الآبار الأرتوازية، وهي كثيرة في بلاد يافع على الرغم من أن مياهها ليست غزيرة.

نزلنا في دار الشيخ أحمد بن أبي بكر النقيب وسرعان ما اكتظت قاعة الجلوس على سعتها بالزائرين وعلى وجوههم دلائل الفرح والسرور.



الشيخ أحمد بن ابي بكر النقيب
شيخ الموسطة[1]

ولقد شاهدت في هذا الجمع وفي غيره من المجتمعات اليافعية التي شاهدتها اهتمام القوم بشؤون البلدان العربية ومستقبل دولها وبخاصة مصر، كما لاحظت اهتماما كبيراً بـ "صوت العرب"الذي تذيعه الإذاعة المصرية فهم يجتمعون حول أجهزة الراديو مساء كل يوم ليسمعوا الأنباء والحوادث والإرشادات التي يرسلها "صوت العرب" للعالم العربي.

اندفع الشيخ أحمد بن ابي بكر النقيب شيخ مشايخ الموسطة يتحدث حديثاً شيقاً عن رحلته في أقاصي بلاد يافع، وهو من الشخصيات البارزة التي يلجأ الناس إليها حين

[1] - استبدلنا الصورة التي وردت في الأصل بهذه الصورة للشيخ النقيب لوضوحها.

تتعقد المشاكل وتتفاقم الخطوب، وهو متحدث لبق واسع التفكير بعيد النظر، وهو إذ يتكلم يحاول أن يشق طريقه إلى أحاسيس السامعين، وصوته يعلو أحياناً فيجذب الأسماع لمشيئته وينخفض أحياناً فيميل بالرؤوس نحوه. ومما تجدر الإشارة إليه أنه من أكبر الشخصيات الذين بذلوا جهوداً جبارة لإنشاء مدرسة قعطبة التي أنشأها إمام اليمن لأبناء يافع على الحدود.

جبل سنام

ذهبنا إلى جبل سنام ويقع على حافة التل الذي تقع عليه القُدْمَة، وقد رافقني السيدان قاسم داوود وعيدروس بن أحمد النقيب، وكانت السحب كثيفة حالت دون أخذ صور لمناظر طبيعية رائعة تحيط بجبل سنام.

وبدأ المطر يهطل رذاذاً، ولكن هذا لم يمنعنا عن السير إلى قمة جبل سنام. ولقد شاهدنا على سفح الجبل منازل أثرية قد تناثرت أحجارها وخزانات للماء منحوتة في الصخر، ورأينا سرداباً منحوتاً في قمة الجبل تتخلله فتحات ضيقة قيل أنه كان سجناً في عصر ما قبل الإسلام، ولم نجد هناك كتابات حميرية أو نقوشاً منحوتة في الصخر، وقد قال لنا أحد المزارعين هناك إن أباه عثر في السرداب منذ سنين على لوحة من الرخام عليها كتابات حميرية وأنه أهدى هذه اللوحة الأثرية للسلطان عيدروس بن محسن العفيفي سلطان يافع السفلى[١].

وعدنا إلى منزل النقيب وقد لفظ النهار أنفاسه، وبدأت كتائب الظلام تتلاحق فشملت الكون واحتوى القُدْمَة سكون عميق.

---

[1] - لا يعرف مصير هذه اللوحة الأثرية للأسف، بل أن كثيراً من آثار المنطقة تعرضت للنهب والسرقة والضياع .

كان جالساً جلسة حزينة عليها مسحة من الكبرياء عاقداً يديه تحت صدره، وعلى وجهه ابتسامة حائرة تفصح عن صراع بين إباءٍ يشتد، ورغبة تستعر.

– فيما تفكر أيها الشيخ الجليل ؟

قال : محاولات الإنجليز وجهودهم لاحتلال يافع..

وسكت لحظة ساد السكون فيها، ثم انبرى للحديث قائلاً:...وقومنا ساهون لاهون عما يرفع مستواهم ويرقي بلادهم إلى المكان اللائق بها.

هذه الآلام تتنازع سيد الموسطة كما تتنازع قادة الضُّبَي ولَبْعُوس والمفلحي وغيرهم من مشايخ القبائل اليافعية.

وسألت النقيب مرة ثانية :

– هل هناك خطر من الغرب ؟

قال : لا، فالإمام لا يضمر لنا شراً ولا يحمل كرهاً ولكن حين يرى الإنجليز يتوغلون في حدودنا فمن المتوقع أن يهجم علينا ليبعدهم عن حدود اليمن.

قلت: أليس من الحكمة أن تمد اليمن قبائل يافع بالأسلحة والذخائر والمؤن لتصد هجمات الإنجليز؟.

قال ثالث وكان جالساً بجواري: إن الإمام يخشى أن تستعمل يافع السلاح ضده.

قلت: إذن يافع بين خطرين..وفجأة دخل علينا رسول من المَحْجَبَة يحمل خطاباً لنا من آل هرهرة يعتذرون فيه عن قبولهم لزيارتنا بسبب غياب السلطان.

وانتقل حديثنا من السياسة إلى الطقس واعتدال الجو وخصوبة الأراضي، وأسدل الليل ستاره وخيم الظلام على القُدْمَة وقضينا زلفاً من الليل في سهرة ممتعة واحاديث مختلفة، واستمعنا إلى "صوت العرب" وكان يهز الفضاء هزاً ويثير في النفوس حب الكفاح والنضال، ثم اتخذ كل منا مكانه ونام.

ولما دنا الليل من ختامه نهضنا للصلاة ثم تناولنا الفطور.

أردنا الرحيل صباح السبت إلى الجهاورة، ولكن الشيخ حسين صالح النقيب أصر وأقسم أن نمكث اليوم كله في منزله ولم نستطع الاعتذار. والشيخ حسين من الشخصيات المحبوبة وقد عرفناه في اندونيسيا حين كنت هناك لغاية سنة ١٩٣٠م وكان عضواً عاملاً في الجمعية اليافعية التي أنشأناها هناك، وهو من الشخصيات البارزة التي يؤخذ رأيها في إصلاح ذات البين.

الجَهَاوِرَة

وفي صباح الأحد ١٩ شوال غادرنا القُدْمَة إلى ضِيْك[1] (دار السَّنينة) حيث يقيم الجهاورة، ولقد رافقنا الشيخ أحمد بن أبي بكر النقيب. الطريق وعرة وبخاصة قرب ضيك فهي تنحدر هناك انحداراً شديداً، وفي بطن الوادي تقوم مجموعتان من الدور ذات الأربع طبقات ومنهما تتكون بلدة ضيك أو دار السنينة. ولقد استقبلنا الجهاورة بحفاوة بالغة وأطلقوا الأعيرة النارية ترحيباً بقدومنا.

نزلنا في دار الشيخ علي محسن الجهوري فاحتفلوا بنا كثيراً وقضينا سهرة ممتعة تجاذبنا فيها اطراف الاحاديث مع السادة محسن حسين الجهوري وعبدالله عبدالقوي

---

[1] - في الأصل "ضيق" وهو خطأ.

وصالح عبدالقوي[1] وغيرهم من رجالات الجهاورة، ويخيل لمن يدخل ضِيْك أنه في عزلة عن العالم فالجبال الشاهقة تحيط بالبلدة والسكون العميق يملأ هذا الوادي ولكن الراديو يقلل من هذه العزلة الصامتة وهذا السكون العميق.

الجُربَة

في صباح الاثنين ٢٠ شوال اتخذنا طريقنا بين التلال الشاهقة ثم اخترقنا حقول الذرة وبعد ساعة ظهرت مدينة الجُربَة حيث يقيم آل المفلحي، وفجأة سمعنا صوت انفجار هز الفضاء المحيط بالجربة ومزق السكون العميق الذي يخيم على هذه الاخاديد السحيقة وحينما سألت رفقائي قالوا أنها طلقة مدفع تحية بقدومنا.

واستقبلونا بزامل عظيم ألقيت فيه قصائد الترحيب وأطلقت آلاف الأعيرة النارية استبشاراً لقدومنا.

وعندما أصبحنا على مُقربة من المدينة أخذت المدفعية ترسل طلقاتها في جو السماء وهي ٢١ طلقة، واجتمع أكثر من ألف مسلح خارج المدينة.

واستقبلونا بزامل عظيم أُلقيت فيه قصائد الترحيب وأطلقت آلاف الأعيرة النارية استبشاراً لقدومنا.

وأمام دار الشيخ عبدالحميد بن عبدالرحمن المفلحي احتشدت الجموع الغفيرة والتفت الساق بالساق وألقيت كلمة شَكَرتُ فيها آل المفلحي على هذه الحفاوة

---

[1] - أطلق هؤلاء الرجال النار على طائرة بريطانية حلقت على ارتفاع منخفض فوق قريتهم عام ١٩٣٣م، وتعرضت قريتهم بسبب ذلك للقصف من قبل سلاح الجو البريطاني.

البالغة التي قابلونا بها وعلى هذه المشاعر النبيلة التي غمرونا بها كما وجهتهم إلى الاهتمام بتعليم أولادهم والعناية بمستقبلهم ليواجهوا الحياة بسلاح العلم والمعرفة.

ورَدَّ على كلمتنا الشاب المثقف الشيخ صالح بن عبدالحميد المفلحي بكلمة شكر وترحيب.

نزلنا في دار الضيافة وفي مقدمتنا الشيخ عبدالحميد بن عبدالرحمن المفلحي نائب شيخ آل المفلحي، وهو من أقوى الشخصيات اليافعية وأكثرهم حماسة وغيرة على القومية اليافعية، وهو حين يتكلم يبدو في حديثه بسيطاً إلى أقصى حدود البساطة حتى ليدهش رائيه إذا لم يكن لديه سابق تعارف أو إذا لم تكن لديه فكرة عنه، لهذه البساطة الحبيبة كيف جمع صاحبها في يديه النفوذ على قومه وكيف ظفر بشخصية قوية تفرض على الناس احترامها.

وسرعان ما اكتظت الدار على سعتها بالناس والكل آذان صاغية لما نسديه لهم من نصائح وما نقدمه لهم من أنباء العالم العربي.

ولقد لاحظت في كل المجتمعات السابقة من بني بكر إلى الجُربة أن اليافعيين يهتمون بأنباء العالم العربي كل الاهتمام ويتمنون من أعماق قلوبهم أن تحقق الوحدة العربية كل الأماني والآمال. ولم يكن هذا الشعور القومي نتيجة دعاية قام بها العرب. كلا، فالدول العربية ساهية لاهية عن جنوب الجزيرة العربية، وإنّما هو ناتج عن الروح الدينية المتغلغلة في هؤلاء الناس. ولو أنهم وجدوا من ينمّي هذه الروح فيهم ويغذيها بكل الوسائل الممكنة لكانت روحهم العربية أقوى وأشد مما هي عليه الآن.

والجُربَة مجموعة من الدُّور ذات الطبقات العالية، تقع على تل صخري تحيط بها أخاديد عميقة مليئة بنبات الذرة.

العودة إلى عدن

كنا أردنا السفر إلى خَلَّة بلاد آل المفلحي السفلى، ولكن وجود العقبات الكأداء ووعورة المسالك كل ذلك جعلنا نعدل عن الذهاب إلى خَلَّة من الجربة.

وأصر الشيخ عبدالرحمن عبد الهادي المفلحي على أن يدعونا إلى داره للغداء والعشاء والمبيت ولكن استطعنا بعد محاولات ووساطات أن نعتذر لهذا الشيخ الكريم كما اعتذرنا عن إجابة دعوات أخرى لشخصيات بارزة في بلاد المفلحي. والشيخ عبدالرحمن عبد الهادي من أشد اليافعيين حماسة وغِيْرة على يافع ومن أنشطهم عملاً للنهوض بها وقد رافقنا هو والسيد صالح بن عبدالحميد المفلحي إلى حدود الجَهوري حين غادرنا الجُربَة.

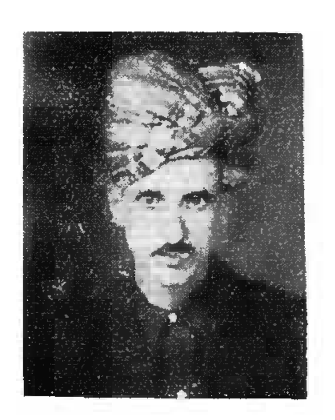
وانضم إلينا في الرحلة الأستاذ حمزة عمر المفلحي وهو مدرس بمدارس المملكة العربية السعودية بجده، جاء إلى يافع لزيارة أهله في خَلَّة وقد أتى إلى الجُربة ليشاركنا في رحلة يافع.

وهو خبير بشؤون البلاد اليافعية فقد قضى بها ردحاً من الزمن واشتغل بالتدريس في الجُربة، كما رافق الدَّباغ في حركته السياسية التي قام بها في جنوب الجزيرة وذاق الأمرين وكان وفياً لأستاذه فعندما وافاه الأجل بذل الأستاذ حمزة مجهوداً كبيراً في المحافظة على زوجة الدباغ وأولاده وأعادهم إلى الحجاز مكرمين. والأستاذ حمزة طلق المحيا مشبوب الترحيب يلقاك كأنه أخ لك من قديم وعلى الرغم من نحافة جسمه فأنه نشط سريع الحركة يقفز على الصخور ويجتاز العقاب كالريم.

لقد اخترقنا طريقاً آخر إلى القُدْمَة وكانت ممهدة صالحة لسير السيارات إذا عُبِّدت. وبعد حوالي ساعة ونصف ساعة وصلنا القُدْمَة ونزلنا في دار سيد الموسطة الشيخ أحمد بن أبي بكر النقيب. وفي صباح الأربعاء ٢٢شوال غادرنا القُدْمَة إلى ذي صراء وقد رافقنا الشيخ حسين بن سالم بن عاطف جابر فاستقبلنا بما عهدنا فيه من الكرم والنبل والشهامة.

هَجَر لَبْعُوس

وفي صباح الخميس ٢٣ شوال ذهبنا إلى هَجَر لَبْعُوس واخترقنا طريقاً ممهدة قطعناها في نحو ساعة وكان يرافقنا الشيخ صالح بن سالم بن عاطف جابر والشيخ حسين بن صالح النقيب وعلي عبدالرب بن عاطف جابر وهو أصغر جندي في العالم فهو يحمل السلاح ويجيد ضرب النار ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.



الشيخ محمد بن محسن الضباعي
شيخ لَبْعُوس

استقبلنا جماعة من لَبْعُوس بحفاوة بالغة وأطلقوا عشرات العيارات النارية ترحيباً بقدومنا. نزلنا في دار الشيخ محمد بن محسن الضباعي شيخ لَبْعُوس وقضينا سهرة ممتعة كنا نستمع في خلالها إلى المذياع وبخاصة "صوت العرب" الذي يفضله القوم في يافع على غيره من الإذاعات.

مسجد النور

أصَرَّ الشيخ علي بن محسن الحريبي حين كنا في ذي صراء على أن نزوره بمنزله، ولم نجد بداً من إجابة طلبه وتحقيق أمله فقد ذهبنا صباح الجمعة إلى مسجد النور ونزلنا في داره وأدينا صلاة الجمعة في مسجد النور الأثري، وقد جادت السماء بمطر غزير سالت له الأودية، وبعد صلاة العصر خرجت أجوب مزارع الذرة بصحبة الشيخ علي بن محسن الحريبي وكان السيل يغمر المزارع والشمس وراء السحب فكان منظراً جميلاً رائعاً ذكرني بجبال قاروت في جاوه الغربية.

وفي المساء عاد الشيخ حسين بن صالح النقيب إلى القُدْمَة وعدنا نحن إلى ذي صراء ليلاً وقضينا البقية الباقية من الليل بمنزل الشيخ صالح بن سالم عاطف جابر.

إلى الزاهر مرة أخرى

نهضنا من النوم وقد تنفس الفجر وتدفقت جيوش النهار زاحفة وراء طبقات الظلام الهادئة الحلكة واصطبغ الأفق بدماء الشمس الأرجوانية. يا لروعة هذا المنظر الطبيعي في هذه البقعة العالية الشامخة من الدنيا.

وأبت شهامة الشيخ صالح بن سالم بن عاطف جابر إلاَّ أن يرافقنا لا إلى آخر حدود منطقته ولا إلى آخر حدود بلاد يافع ولكن إلى داخل حدود اليمن..إلى البيضاء.

وتابعنا السير نذرع الطريق وقد صمتنا جميعاً من غير داعٍ للصمت، ولكن لم يطل هذا الصمت فقد أخذ الأستاذ حمزة والشيخ صالح يتحدثان في شؤون شتى وقد تركنا

حميرنا تمشي خلفنا حاملة فرشنا وحقائبنا، واخترقنا هضبة صخرية تشقها بعض المنخفضات الشبيهة بالأحواض تغطيها نباتات الذرة.

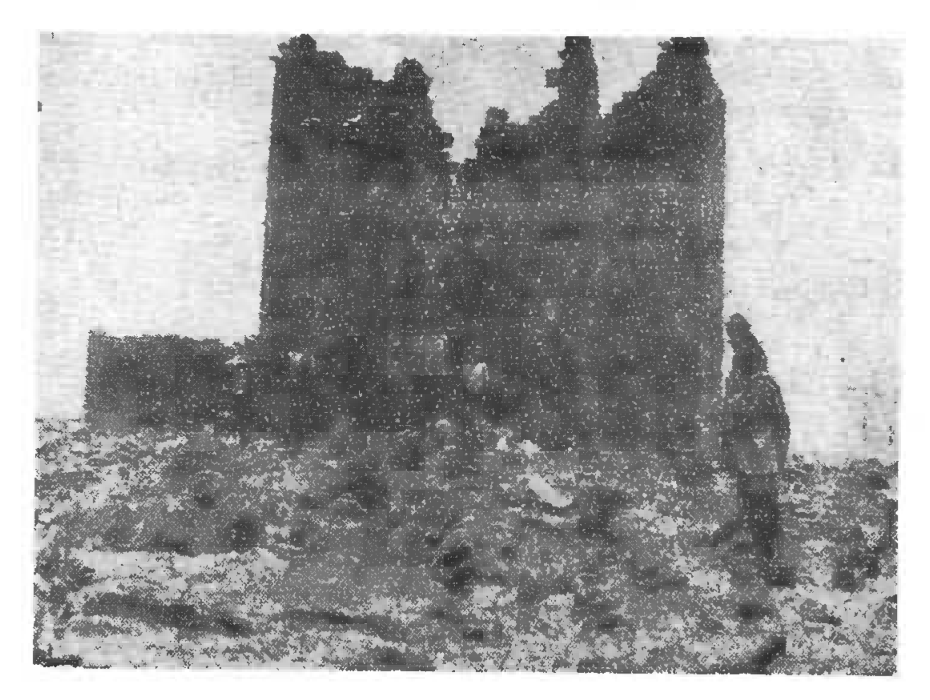
ومن هذه الهضبة يمكن أن ترى بوضوح قمم جبال ثَمَر وحَبَه والعُر، وعند نهاية حدود لَبْعُوس بدأنا نهبط في منحدر عظيم يقال له عقبة توزلي وهو يؤدي إلى وادٍ ضيق عميق غني بنبات الذرة وأشجار النبق والبُن. ولم نتمكن من رؤية هذا المنحدر الهائل إلاَّ عند اقترابنا منه لأن هذه الهضبة الشامخة كانت تحجزه عنا. وتنحدر هذه الأسوار الجبلية انحدراً يبلغ ثلاثة آلاف قدم. واخترقنا الوادي سيراً على أقدامنا واندفعنا صاعدين، وكلما تقدمنا أوغل الوادي في الضيق وعلى حافتيه تعلو القمم الشامخة وقد تساقطت منها أحجار إلى الوادي بفعل عوامل التعرية.

وبدأنا نصعد عقبة شَرْعَة وهي أقل وعورة من نقيل بني بكر وذَبُوب وتُوزلي، بيد أني شعرت بتعب عظيم في صعودي فيها، ولعل ذلك يرجع إلى أني لم أذق للنوم طعماً في الليلة الماضية. وكان أسرعنا في السير الشيخ صالح والشيخ قحطان فقد سبقا جميع



خزان من جبل العر وحوله الرفقاء ويرى في وسطهم الشيخ صالح سالم بن عاطف جابر شيخ مشايخ الضُّبي

الرفاق إلى قمة العقبة، وكنت أنا والأستاذ حمزة متمهلين مترفقين نقف قليلاً لنسعى كثيراً ونحن نمد أبصارنا إلى هذه الناحية أو تلك لنرى هذا المشهد أو ذاك من مشاهد جمال الطبيعة، نمد أبصارنا في هذه الناحية لنرى الأسوار الصخرية الشاهقة وقد علا بعضها نبات مختلف ألوانه، تتدلى الأغصان إلى أسفل لتلامس مجرى السيل، ونمد أبصارنا إلى تلك الناحية لنرى زهوراً جميلة تحمل ابتسامة الشمس ورقة النسيم وهدوء الليل، وربما انحنى أحدنا فجأة إلى الأرض لا يحاول ركوعاً ولا سجوداً وإنّما دعته هذه الزهرات النضرات من زهور العشب الذي ينبت في أعقاب الغيث.



حصن العر

وفجأة قال لي رفيقي:.. لقد بلغنا نهاية العقبة. فتنفست الصعداء وقلت: هنا يجب أن نستريح برهة.

وهنا تمتد الطريق على سطح الجبال فانطلقنا فيها من غير كلل ومررنا على خزان كبير مليء بماء المطر وحوله بعض الرعاة يسقون أغنامهم. وبدأنا نخترق طريقاً ممهداً مصعداً في جبل العر، ولكنه صعود متدرج لا مشقة فيه ولا تعب، وعلى سطح الجبل امتدت أنظارنا إلى آفاق شاسعة.

وفي مكان عالٍ وعلى حافة وادٍ عميقٍ يقوم حصن العر الذي بناه جنود الإمام منذ ثلاثة قرون حين كانت بلاد يافع عهدئذٍ تابعة لليمن، وفي هذا الحصن حدثت معركة



الثقب الذي نحتته جماعة من يافع في الجبل إلى حصن العر

عنيفة بالسلاح الأبيض بين جنود الإمام وبين جماعة من يافع كانت المعركة الفاصلة وكان النصر فيها ليافع، فعندما اشتد دفاع حماة الحصن نحتت جماعة من يافع ثقباً كبيراً في الجبل حتى وصلوا إلى الحصن من أسفله وقتلوا جنود الإمام عن بكرة أبيهم.

وعلى مقربة من جبل حِلْيَن[1] توجد منطقة مسطحة وهي أصلح مكان لإنشاء مطار بيافع العليا. وظهر جبل حِلْيَن وعلى سطحه يقوم قصر السلطان.
بدأنا نهبط إلى وادي الزاهر حيث تنتهي حدود يافع. ومن هناك تصبح الطريق مهاداً مخترقة أراضي زراعية خصبة بها بعض آبار أرتوازية.

الزاهر

وهكذا أراد الله أن نعود إلى الزاهر مرة ثانية. لقد وصلنا إلى هذه البلدة المتواضعة قبيل الغروب ونزلنا في دار الشيخ الكريم سالم عبدالقوي الحميقاني فقابلنا بحفاوة لا تقل عن الحفاوة التي قوبلنا بها في المرة الأولى وقضينا سهرة ممتعة ثم نمنا نوماً عميقاً ؛ ولا غرو فقد أضنانا التعب بعد المشقة وطول المسافة فنحن بدأنا رحلتنا من ذي صراء عند مطلع الفجر ووصلنا الزاهر قبيل الغروب.

إلى مكيراس

وفي صباح الأحد ٢٦ شوال غادرنا الزاهر في طريق ممهدة تجتازه السيارات بسهولة، وعند حدود البيضاء ودعنا الشيخ صالح بن سالم بن عاطف جابر وشكرناه على حفاوته البالغة وقد اتخذنا طريقاً يتجه إلى الجنوب الشرقي وقد استوت الشمس في كبد السماء، ولكن الحر لم يكن لافحاً ومررنا بضياع جميلة مليئة بأشجار الفواكه على اختلاف أنواعها أهمها العنب والخوخ. وفي قرية قابل جلسنا تحت شجرة تين

[1] - في الأصل "حلجن" والصحيح حِلْيَن.

ضخمة وقد تدلت من فروعها عناقيد العنب واضطجع كل منا في ظلها الممدود وحولنا أشجار مثمرة يانعة ونباتات غضة زاهرة والسحب القلقة الرخوة تتخذ أفتن الأشكال وأعجبها وشربنا قهوة هي أقل جودة من القهوة اليافعية ولعل هذا يرجع لا إلى عمل القهوة نفسها ولكن إلى نوع البن، ويظهر أن جو وديان يافع أصلح وأنسب لزراعة البن.

وقابل قرية حقيرة لا شيء يلفت النظر فيها سوى هذه الحديقة.

بعد ساعتين غادرنا قابل واندفعت حميرنا تجري لسهولة الطريق، وفي الساعة الخامسة مساء وصلنا مكيراس وهي قرية متواضعة منازلها ذات دور واحد مبنية من الطوب النيء. ولا شيء فيها يلفت النظر سوى جوها المعتدل ونسيمها العليل ومائها العذب، وهناك بستان به أنواع مختلفة من أشجار الفواكه كالتين والخوخ والعنب والسفرجل والبرقوق يروى بماء بئر أرتوازية والزراعة فيها تسير على أحدث الطرق.

وترسل مكيراس بعض الفواكه والخضر إلى عدن بطريق الجو. ويتوسط البستان قصر جميل. وعلى مقربة منه مدرسة مبنية من الحجر. ومنطقة مكيراس داخَلّة تحت الحكم الإنجليزي، ولا تزال جماعة من العواذل يبذلون محاولتهم لاستردادها لذلك فالأمن مضطرب ليلاً، وعندما يأتي النهار يتبدد الخوف وينتشر الناس في أطراف مكيراس حتى حدود البيضاء دون أن يعترض سبيلهم أحد.

ليلة الديك

...وأخيراً استقر رأينا على شراء تيس صغير أو دجاجة للعشاء، فقد هجم الجوع علينا هجوماً عنيفاً، ولعل جو مكيراس الجميل ساعد إلى حد كبير على هضم ما في بطوننا من طعام. ولسوء الحظ لم نعثر على تيس صغير ولا كبير!. ولكن أحد السكان أحضر

لنا ديكاً ضخماً قد تدلى عرفه الأحمر القاني على إحدى عينيه فحجبها عن الأنظار وانكمش منقاره الطويل المقوس وتساقط كثير من ريش ذيله وجناحيه كأنه خرج من معركة حامية بينه وبين ديوك مكيراس. ولما ذبحه أحد الجيران بخنجره الكبير وسلخ جلده الغليظ ظهرت أضلاعه الطويلة العريضة بارزة، فقلت لصاحبي وقد وقف ينظر إلى الديك بفم فاغر.. يظهر أن هذا الديك من مواليد القرن الماضي ولعله شاهد أول بيت بُني في مكيراس.

وأخيراً.. أحضرت لنا صاحبة البيت العشاء واستعد كل منا للأكل ما عدا السيد حمزة فقد فضل النوم على الطعام لشعوره بتعب. وبدأت المعركة بيننا وبين لحم الديك، وطالت المعركة وانتهت بهزيمتنا فقد كان لحمه أشبه بلحم جمل أو جلد جاموس.

وهكذا استطاع الديك أن يهزمنا جميعاً في مماته كما كان يهزم ديوك مكيراس في حياته.

وفي الساعة الثامنة من صباح الاثنين ٢٧ شوال غادرنا مطار مكيراس؛ ومضت الطائرة تشق أجواز السماء في هدوء يلهب في الذهن الخيال وبعد نصف ساعة وصلنا مطار عدن فاستقبلنا الحر والغبار والسموم، أنه حر لافح يشوي الوجوه ويزهق النفوس. نزلنا في دار السادة آل العيسائي فقوبلنا بحفاوة بالغة وشوق ملتهب وأخذ القوم وعلى رأسهم السادة علي ناجي وحسين عبدالله وعمر قاسم يسألوننا عن جو بلاد يافع وأمطارها ومزارعها وأحوالها السياسية والاجتماعية. وعلى الرغم من أن بعضهم حديثو عهد بيافع إلاَّ أنهم مشتاقون لأخبار بلادهم كل الاشتياق، ولا غرو فإن للوطن

حنيناً لا يخبو ويخمد إلاَّ بفناء الإنسان حتى ولو كان حظ وطنه من الحضارة والرقي قليلاً. وإني لأذكر إنّي حين كنت في "هلفرسم" إحدى مدن هولندا الجميلة، وحين كنت في باريس كنت أشعر بحنين يزداد يوماً بعد يوم إلى مصر هذا الوطن الجديد الذي تعلمت في معاهده ونشأت تحت سمائه حتى تجاوزت الأربعين.

إلى خَلَّة

الطريق وعرة بين عدن وخَلَّة وبخاصة في منطقة الضالع ومسيمير ولابد لنا من سيارة قوية لا تتأثر بالصخور البارزة ولا المسالك الملتوية ولا الوهاد العميقة ولا العقاب الكأداء.

قال حمزة هذا وانصرف كالبرق الخاطف.

وبعد ساعتين أقبل وعلى وجهه دلائل النصر والفرح.



عقب وصولنا إلى خَلّة

– ما وراءك ياعصام ؟

– لقد وجدت سيارة جديدة قوية تخترق الوهاد والتلال والجبال.

- لقد أحسنت.

- ومتى يبدأ الرحيل ؟

- الساعة الرابعة من مساء اليوم.

واقبل مسعود عوض بسيارته الجديدة القوية والسيد مسعود من أكثر الناس خبرة بمسالك جنوب الجزيرة، فقد اشتغل لدى الإنجليز سنين عديدة وهو علاوة على ذلك مرح ذو شخصية محبوبة.

لحج

انطلقت بنا سيارة مسعود كالسهم ولم تتوقف إلاَّ فترات قصيرة عند الحواجز الجمركية وما أكثرها بين عدن والضالع. ها نحن في الحوطة عاصمة سلطنة لحج نمر بين بيوت متواضعة مبنية من الطوب النيء، ويحتل قصر السلطان العظيم مساحة واسعة. والحوطة تشبه إلى حد كبير قرية في الريف المصري فأحراج النخيل تحيط بها من كل الجهات وتكاد لحج تكون أخصب المناطق الجنوبية فتربتها تحتوي على كل عوامل الخصب.

وتتدرج سفوح الأراضي نحو البحر مكونة رؤوساً من الرواسب النهرية. وتنقسم لحج إلى قسمين : شرقي ويسمى الوادي الصغير وكان يسمى وادي الزان ويبتدئ من قرية زائدة وينتهي بالقرب من قرية العماد. وغربي ويسمى الوادي الكبير ويبدأ من قرية زائدة أيضاً وينتهي عند مرسى التواهي بعدن، وتخترق هذين الواديين وديان عرضية وطولية يقال لها أعبار. وتحتل غابات النخيل وأشجار الفواكه ومزارع الذرة مساحة واسعة من

أراضي لحج يرويها نهر تُبَن الذي يستمد ماءه من وادي مسيلة بِلَهْ ومن روافد أخرى تأتي من داخل حدود اليمن.

وفي عصر التبابعة بُني سد لحج العظيم وهو سد العرائس لخزن مياه الوديان وتوزيعها على الأراضي الزراعية وليس لهذا السد أثر ولا يعرف مكانه بالضبط ولكن الأمير أحمد فضل العبدلي ذكر في كتابه "هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن "أنه كان بالمسيد قرب العند حيث توجد أحجار ضخمة مبعثرة في جوف الوادي. وفي لحج تكثر أشجار الموالح والخضروات والموز والعنب والتين وجوز الهند والمانجو والشيكو وهو من اشهر فواكه الهند وألذَّها طعماً، وتتكدس غلات لحج في أسواق عدن.

وقبائل لحج خليط من العجالم والجحافل والأعمور والحواشب والعقارب والأبقور وذي أصبح.

وفي لحج من يافع مشايخ آل علي باصهيب والخرمان مشايخ آل قطيب. فالخرمان من آل الكسادي وآل علي من ذي ناخب. وكانت لحج تحت حكم الأمير حسين بن عبدالقادر اليافعي ولما احتلها أحمد بن الحسن اليمني جاء الشيخ فضل بجيش من يافع وهجم على لحج واحتلها.

والمصاهرة بين أمراء العبادل وأمراء يافع معروفة. ولما قتل أحمد بن صلاح السلامي انتقلت زوجته وهي من أميرات يافع بأولادها إلى يافع وقامت في خنفر.

وجاء في كتاب "نزهة الجليس وأمنية الأريب الأنيس" للشيخ العباس بن علي نور الدين المكي: إن آل سلام العبادل فخذ من يافع من قبيلة كلد وبلدتهم في يافع تسمى بركان[1] غربي جبل موفجة[1].

---

[1] - في الأصل "بركات" والصحيح بَرَكان.

اندفعت بنا سيارة مسعود في طريق ممهد تظلله أشجار كثيفة على الجانبين ويمتد الطريق مسافة طويلة في خط مستقيم.

وهبَّت عاصفة رملية عاتية وكادت ذرات الرمل تدفننا واستمر الصراع بيننا وبين العاصفة حتى مغرب الشمس ثم بدأنا نخترق هضبة صخرية تتخللها أخاديد. وفي الساعة التاسعة مساء وصلنا.

قرية ملاح

وهي قرية متواضعة بنيت منازلها من الطوب النيء وتتكون من دور واحد وقد اتخذنا سطح أحد المنازل مكانا للجلوس وللنوم واتفقنا مع الرفقاء على شراء حَمَل للعشاء وكان عشاء لذيذاً مكوناً من لحم طري ومرق وخبز مخبوز في التنور.

وكان النسيم عليلاً والهدوء يسود كل شيء في القرية والنجوم ترسل انوارها الضئيلة على الفضاء الواسع فتضفي على الكون جمالاً صامتاً هادئاً فيه شفاء للاعصاب وبلسم للمشاعر والوجدان.

وكانت صاحبة البيت تأتي إلينا من حين إلى آخر تقدم لنا القهوة اللذيذة أو تحضر لنا الماء وتارة تنطلق في كلام طويل يمزق جمال هذا السكون الذي يحيط بنا. وكان رفيقنا السيد حمزة عمر المفلحي يصغي إليها باهتمام كثير فقلت لنفسي : ما أوسع صدر حمزة وما أكثر صبره وأقوى احتماله لكلام النساء.

مضى من الليل جانب كبير واضطجع كل منا في فراشه.

---

[1] - وردت في الأصل "جبل فوجة" وهو خطأ.

وكنت مستلقيا على ظهري انظر إلى النجوم وفيما أنا غارق في لجة عميقة من التفكير إذ بشهب يهوي نحو الأرض من أعالي الفضاء بسرعة جنونية تاركاً خلفه خطاً طويلاً أبيضاً فأنتصب أحد الرفقاء مبهوتاً وكان على مقربة مني.

- ما الذي أزعجك ؟
- هذا النجم الذي سقط.
- ليس هذا بنجم وإنّما هو من الشهب أو الرجوم أو النيازك.

قلت هذا وتهيأت للنوم ولكنه لم يتركني وشأني فسألني :

- إيه الشهب وليه تسقط من السماء إلى الأرض ؟

سؤالان هامان وعلى جانب من الصعوبة ولولا إنّي مدرس جغرافيا ومن عشاق هذا العلم لأجبته بالسكوت.

ولم أرَ بداً من الإجابة ... جلست القرفصاء قائلاً بصوت خافت: "الشهب قد تسقط وتصل إلى الأرض على شكل أحجار. وعندما نقل الرومان من بلاد اليونان (سنة ٢٠٤ قبل الميلاد)حجراً سقط من السماء اعتقد الاغريق أنه رسالة من (سيبيل) أم الآلهة (على زعمهم) وظل العلماء والفلاسفة ينكرون كل الإنكار أن هناك أحجاراً تسقط من السماء حتى أوائل القرن التاسع عشر حين أمطرت السماء ببلدة **L'aigle** في فرنسا عدداً من الرجوم أو النيازك سنة(١٨٠٣م) وقام العالم "بابوت"بدرسها وفحصها وأثبت أنها من مادة تختلف في التركيب عن المألوف في مادة الأرض. ومنذ ذلك الحين اهتم العلماء بدراستها والتعرف على أنواعها وأثبتوا بالحساب الدقيق أن الفضاء يقذف كل عام إلى جو الأرض ما لا يقل عن سبعة آلاف مليون شهاب لا يصل منها غير تام الاحتراق إلى سطح الأرض إلاّ حوالي تسعمائة يضيع حوالي ثلاثة أرباعها في أعماق المحيطات وأطراف القفار ولا يعثر الإنسان كل عام إلاّ على ثلاثة أو أربعة

ينقلها إلى المتاحف ودُور العلم حيث يوجد الآن زهاء ألف نوع من الشهب أكبرها وزناً شهاب نقله بيري من جزيرة جرينلاند إلى متحف لندن ويبلغ وزنه ٣٦ طناً ونصف.

أما سرعة سقوط الشهب فتتراوح بين ٢٥ و٨٠ ميلاً في الثانية الواحدة. وقبل دخول الشهاب في جو الأرض على ارتفاع يتراوح بين ٧٠ و٨٠ ميلاً من سطحها تكون حرارته هي حرارة أعماق الفضاء التي تقدر بنحو ٤٥٩ درجة فهرنهيت تحت الصفر فإذا ما اصطدم واحتك بالهواء ارتفعت حرارة سطحه فجأة إلى ما يقرب من سبعة آلاف درجة فهرنهيت فيشتعل سطحه ويحترق الهواء المحيط به على صورة هالة ضخمة.

ومن الشهب ما يتم احتراقه في رحلته فلا يصل إلى الأرض سليماً.

وقد قسم العلماء ما بين أيديهم من الشهب ثلاثة أقسام :

١- الشهب الحجرية.

٢- الشهب الحديدية.

٣- الشهب الحجرية والحديدية.

أما أصل الشهب ومصدرها فقد اختلف العلماء في ذلك: فجماعة من العلماء بجامعة هارفارد قالوا أن قرابة ٧٠% من الشهب يرد إلى الأرض من خارج المجموعة الشمسية.

ويقول "جامو" إن الشهب هي أشلاء كوكب كان قرب المريخ وقد تحطم هذا الكوكب لاصطدام أحد أقماره به، ويدلل على رأيه هذا بأن الحلقة المحيطة بكوكب زحل والتي يقال أنها نتيجة اصطدام أحد أقماره به، هذه الحلقة مكونة من ملايين القطع الصغيرة التي تشبه الرجوم.

ويقول آخرون إن الشهب من شظايا انقلاب المذنبات (comets) ويؤيدون هذا بأنه على إثر انقلاب أحد المذنبات بين سنوات(١٨٥٢م – ١٨٥٦م) سقطت على المكسيك رجوم من الحديد سنة ١٨٨٥م.

وهنا رأيت صاحبي مستنداً بالحائط وقد استسلم للنوم. ولا شك أنه لم يفهم شيئاً مما قلته فتركته وشأنه ونمت.

بعد فجر الاربعاء ٢٩ شوال غادرنا قرية ملاح، وكانت الطريق ممهدة وعندما أوغلنا في وادي سيلة حردبة وجدنا أنفسنا بين صفين من الأشجار وبعد نصف ساعة أخذ الوادي يضيق وتقترب السلسلتان الجبليتان من بعضهما واندفعت بنا سيارة مسعود صاعدة في نقيل حردبة (الخريبة) وفي نهاية العقبة تمتد هضبة بها مساحات من الأراضي الزراعية تروى بمياه الأمطار وتظهر قمم جبال حالمين وحرير وجحاف طاعنات في السماء.

– ها هي الضالع ... لقد أصبحنا على مقربة من خَلَّة.

والتفت إلى مصدر الصوت فإذا بصديقنا السيد حمزة يبتسم. ولا غرو فخَلَّة تبعد عن الضالع ١٣ ميلاً وبها يقيم أهله وأولاده فلا غرابة إذا ابتسم أو ضحك أو رقص من الفرح.

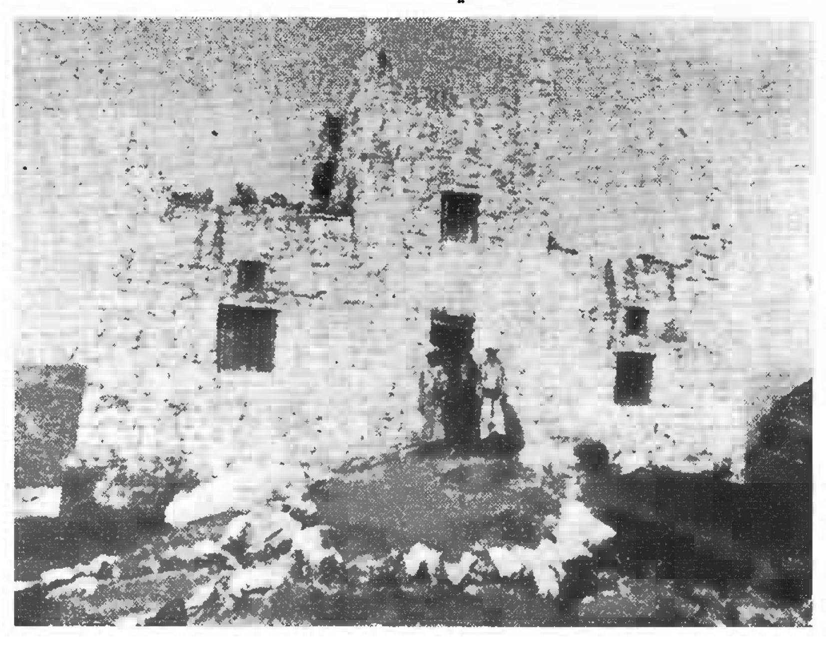
أما أنا فليس لي أولاد ولا زوجة، والحمد لله، لا في خَلَّة ولا في غيرها من بلاد العالم فلا يهمني قرب خَلَّة مثل مايهم السيد حمزة. وغاية ما في الأمر أني مشتاق لزيارة

صديق عزيز كريم في خَلَّة بلاد المفلحي السفلى ذلكم هو الشيخ قاسم بن عبدالرحمن المفلحي ومشتاق أيضاً لمشاهدة المناطق الأثرية التي تضمها تلال شُكُع.

وصلنا الضالع الساعة السابعة صباحاً ويظهر أن جوها رطب فقد شاهدنا قطرات الندى تتزاحم على أوراق نبات الذرة التي تحتل مساحات واسعة من أراضي الضالع.

ومدينة الضالع عاصمة بلاد الأمير وترتفع حوالي ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر وتبعد عن عدن نحو ٩٦ ميلاً وتتكون المباني من دور إلى اربعة ادوار وهي من الحجر ولا تختلف عن المباني في بلاد يافع.

وآل قطيب وقبائلها من القبائل الضاربة على حدود اليمن وكان بعضهم ينهب القوافل بالقوة وقد عانت حكومة عدن الأمَرَّين في نشر الأمن هناك.



مدرسة خَلَّة

استأنفنا الرحيل مخترقين سهلاً خصباً واسعاً حتى وصلنا خَلَّة الساعة التاسعة صباحاً فاستقبلنا جماعة من آل المفلحي وعلى رأسهم الشيخ قاسم ابن عبدالرحمن المفلحي، حاكم خَلَّة، بحفاوة بالغة وأطلقوا العيارات النارية احتفاءً بقدومنا واتجهنا جميعاً إلى المدرسة فاستقبلنا تلاميذها في صفوف منتظمة يتقدمهم ناظر المدرسة السيد سيف بن عبدالقوي المفلحي والمدرسان سعيد ناجي وعبدالرحمن بن هادي وألقوا نشيداً حماسياً ثم صعدنا إلى الطابق الثاني وهناك في غرفة اجتمعنا وألقى ناظر المدرسة كلمة الترحيب بالنيابة عن الشيخ قاسم عبر فيها تعبيراً صادقاً عميقاً عما تكنه قلوب آل المفلحي من الود والوفاء فشكرتهم على ذلك ودعوتهم إلى العمل ومضاعفة الجهود لنشر التعليم وترقيته إلى المستوى اللائق بهم.

ومما تجب الإشارة إليه أن المدرسة تهتم بالنشاط المدرسي فهناك مساحة من الأرض أمام المدرسة معدة للقيام بالألعاب الرياضية. ولقد شاهدت بنفسي التلاميذ وهم يؤدون بعض الألعاب الرياضية تحت إشراف مدربهم. فسرني ذلك سروراً كثيراً.



تلامذة مدرسة خَلة أثناء القيام بألعابهم الرياضية

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن هناك على مقربة من المدرسة مستشفى ولكنه خالٍ من المرضى. ولقد اختاروا لي مكاناً للنوم يحتل جزءاً من سطح المدرسة وقد أحسنوا الاختيار فالمدرسة تقع على ربوة عالية تطل على خَلَّة وأمامها محيط واسع من الفضاء يمتد حتى حدود قعطبة.

وفي الليل فتحت الشباك والباب المقبل للشباك فأوجدت في الغرفة تياراً قوياً وجرى الهواء مع التيار وامتلأت الغرفة بنسيم رقيق ناعم وشعرت في هذا الصيف بنعمة الجو وأخذت أمارس الشهيق والزفير بعجلة ولهفة وفرح. وكنت أشهق حياة وأزفر حياة ولم أَدرِ من فرط شوقي هل اتمتع بالنوم وأحرم من الإحساس بالجو الجميل أو اتمتع بالجو الجميل وأحرم نفسي من النوم؟.

ولم يكن لي إرادة في الاختيار فقد غلبني النوم على أمري وصحوت في الساعة الخامسة صباحاً. نمت سبع ساعات نوماً عميقاً لا أرق يصدع رأسي ولا عَرَق يلذع جسدي كما كان الحال في عدن أو الحجاز. صحيح إنّي تلمست كتفي التي تعرضت للهواء وأنا نائم فوجدت التيار قد جرفها... ولكن لابأس...فأنه خير لي أن أعيش منتعشاً بكتف واحدة من أموت مكتوم الأنفاس ولي كتفان.

ارتديت ملابسي وجلست في شرفة الغرفة اتأمل أشعة الشمس وهي تلمس المروج الخضر والجبال الشماء.

شُكُع

تبعد شُكُع عن خَلَّة حوالي ساعة من الزمن سيراً على الأقدام وللوصول إليها لا بد من اجتياز عقبتين على جانب من الصعوبة.

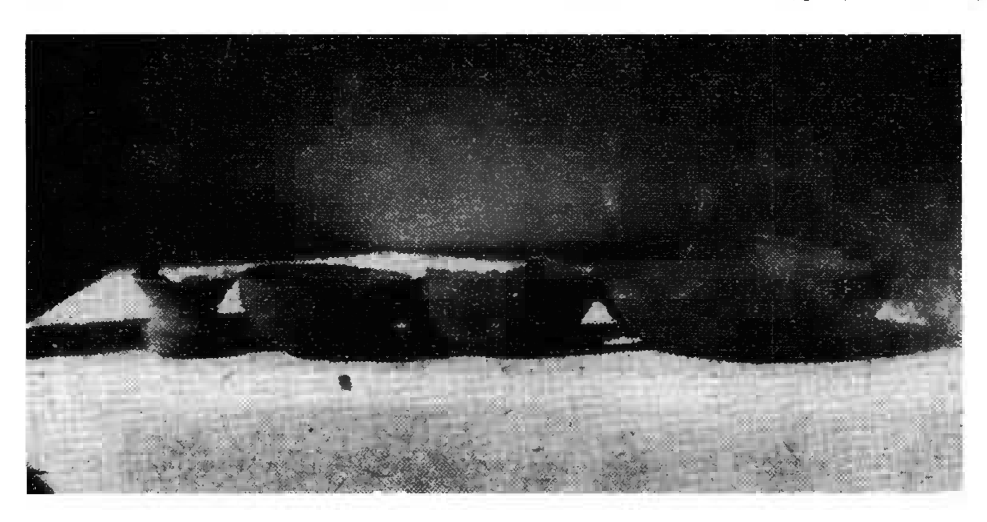
ومنازل شكع لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، وتقع على تل صخري عالٍ تحيط بها أخاديد مزروعة ذرة وتلال صخرية شاهقة بها مقابر حميرية أثرية. ومشاهدة الآثار أحب الهوايات إلى نفسي، ولقد ذهبت إلى حضرموت في العام الماضي لمشاهدة الآثار في ريبون وغير ريبون وتكبدت لذلك مبلغاً من المال كنت في أشد الحاجة إليه وتحمَّلت متاعب الشمس المحرقة في وادي حضرموت كل ذلك لإشباع هذه الرغبة أو هذه الهواية وهي هواية مشاهدة الآثار القديمة والبحث عن معالمها والتنقيب عن مآثرها.

وإذ كان هذا في حضرموت والمسافة بعيدة والتكاليف كثيرة والحرارة شديدة فكيف لا أذهب إلى شكع وغير شكع من بلاد يافع والجو معتدل والشقة قريبة والتكاليف قليلة. وليس هذا فقط فالناس هنا – كلهم من يافع – طوع أمري ورهن إشارتي لا خوفاً مني ولا طمعاً فيّ، فلست ذا سلطة ولست ذا مال، وإنّما هو الإخلاص والحب والولاء والوفاء.

وانطلقنا إلى شكع وفي مقدمتنا الشيخ قاسم بن عبدالرحمن المفلحي سَيِّد "خَلَّة"وهناك شاهدنا قبوراً أثرية محفورة في سفح تل صخري وكان اكتشاف هذه المقابر بطريق الصدفة. فقد كان أحد سكان شكع يحفر في قمة التل فعثر على عمق نحو متر ونصف متر على سيف محطم وخاتم من ذهب، وعثر شخص آخر في مكان آخر من سفح التل على لوح من الرخام به كتابات حميرية. كما عثرنا في مقبرة حميرية على أوانٍ من البرونز قد علاها الصدأ وأوعية من الخزف والزجاج.



الشيخ قاسم بن عبدالرحمن المفلحي- شيخ قبائل المفلحي

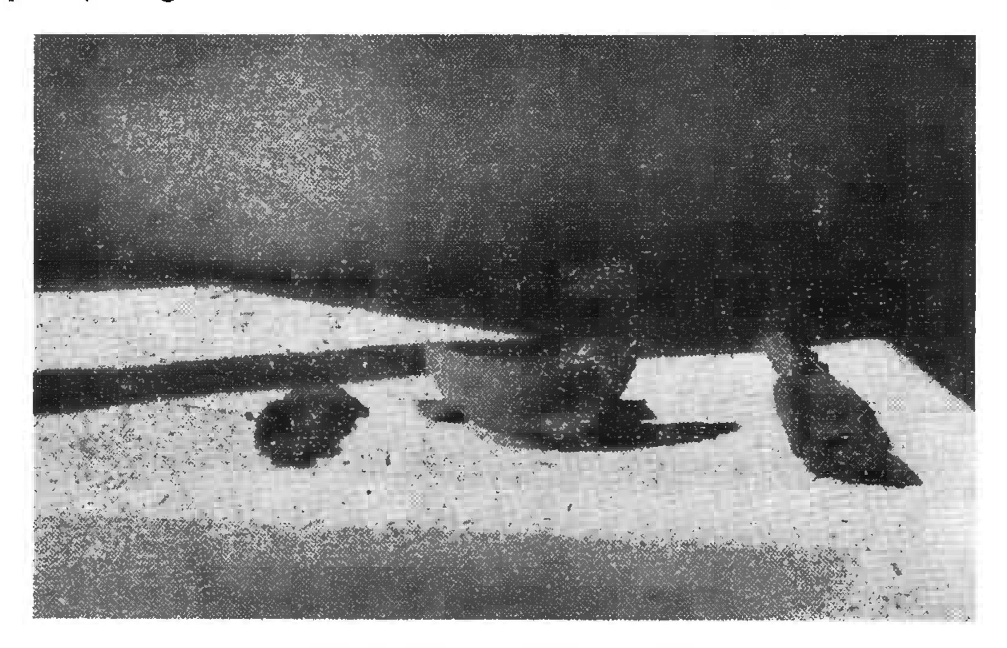


أوعية من البرونز

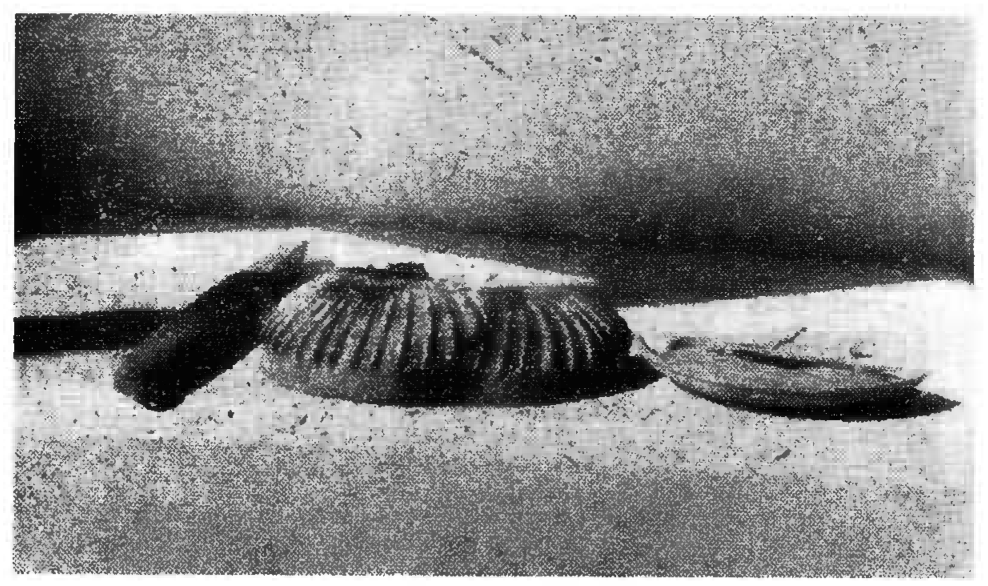
وصناعة "الخزف "عريقة في القدم، فقد احتاج الإنسان منذ أجيال بعيدة إلى أوعية يضع فيها غذاءه وشرابه، وكان الفخار هو أسهل مادة متوفرة لديه استطاع أن يتخذ منها هذه الأوعية ولا زلنا حتى اليوم نستعمل الفخار في حياتنا اليومية لا فرق بيننا في ذلك وبين أجدادنا الذين عاشوا قبل التاريخ.

ولشدة اتصال الأواني الفخارية بحياة الإنسان عنِيَ بدراستها علماء الآثار عناية كبيرة لأنها تعكس صور تطور الحياة.

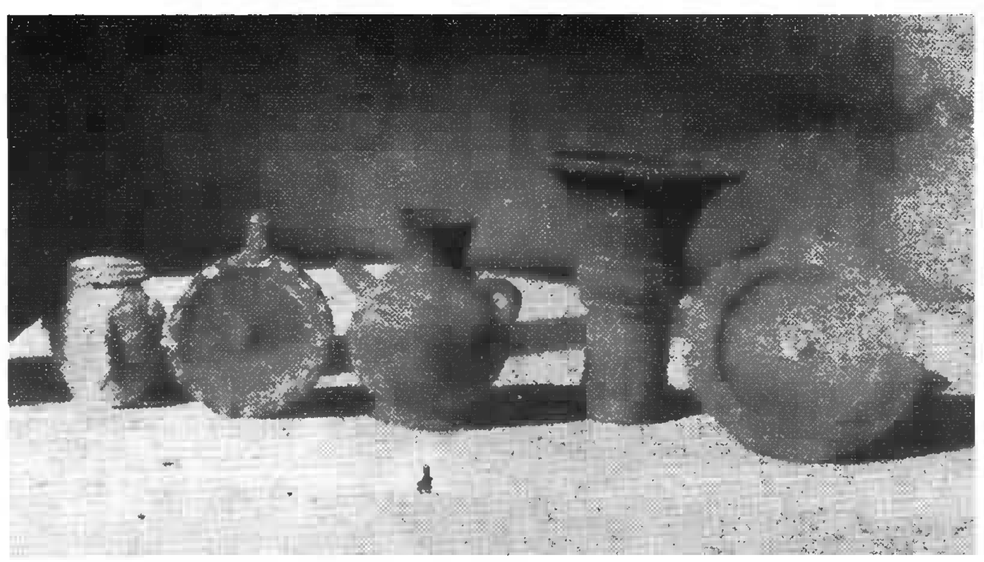
ولم تكن صناعة الأواني في العصور التي سبقت ظهور الإسلام موضع رعاية الحُكّام والملوك لأن اتخاذهم الأواني من المعدن، لاسيما الذهب والفضة، لم يجعلهم يفكرون كثيراً في الأواني الخزفية التي كان يستعملها من هم أقل منهم مكانة.



وعاء من البرونز وسيف من الحديد محطم



إناء وطبق من الزجاج الملون



مبخرة وغطاؤها من البرونز وابريق من الخزف

أما في العصر الإسلامي فقد تغير الحال إذ أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث تحرم اتخاذ الأواني من الذهب أو الفضة، وسواء أصحت هذه الأحاديث أم لم تصح فقد كان لها من غير شك أثر في

توجيه العناية إلى صناعة الخزف، وفي النهوض بهذه الصناعة الأمر الذي كان من نتائجه ابتداع أنواع جديدة من الخزف لم تكن معروفة من قبل أهمها الخزف ذي البريق المعدني.

لا شك أن منطقة شكع غنية بالآثار وقد طلبت السلطة الإنجليزية من حاكم خَلَّة الشيخ قاسم عبدالرحمن المفلحي ألاَّ يسمح لأي شخص بالحفر والتنقيب في هذه المنطقة الأثرية.

بعد أن تناولنا الغداء في منزل الشيخ عبدالقوي الحاكم بالنيابة لمنطقة خَلَّة غادرنا القرية شاكرين للشيخ عبدالقوي احتفاءه بنا وودعنا السيد حمزة وعاد إلى خَلَّة، وأبى

الشيخ قاسم إلاَّ أن يرافقنا إلى الضالع. وفي الساعة الرابعة مساء غادرنا الضالع شاكرين للشيخ أحمد قاسم بن عبدالرحمن المفلحي حفاوته البالغة بنا وشعوره الكريم النبيل.

انطلقت بنا سيارة مسعود كالسهم بين تلك التلال الصخرية الشاهقة والأخاديد العميقة. وفي نقيل "عقبة"الخريبة ارتعدت فرائص بعض الركاب ولكن مسعود عوض قاد سيارته بمهارة وبراعة.

انطلقت بنا في وادي حَرْدَبَة[1] بين صفين من أشجار الأثل والنبق والبوص حتى وصلنا إلى مسيمير، وأبى مسعود أن يرتاح بعض الوقت في ملاح، ذلك لأنه أراد أن يصل إلى عدن قبل العاشرة مساء ولقد تحققت رغبته فقد اندفع بسيارته وهو يغني تارة ويقص علينا بعض ذكرياته تارة أخرى، ولعله أراد بذلك ادخال السرور إلى نفوس الركاب.

وكان منظراً جميلاً حين أخذت أشعة الشمس تلمس الفضاء الشاسع وتنفذ فيه وتعلو فوقه ثم تنسحب من الفضاء المحيط بنا رويداً رويداً، وتتجمع كرة حمراء ملتهبة وتغرق الكرة.. تغرب الشمس في جو السماء.

إن غروب الشمس وانطفاء جذوتها واحمرار الشفق حولها يرهف شعوري كما لو كان لحناً موسيقياً قوي النغمات. إنها موسيقى تسمعها عيناي.

وصلنا عدن الساعة التاسعة مساء سالمين ونزلنا في دار السادة آل العيسائي.

---

[1] - وردت في الأصل "حودبة" وهو خطأ.

يافع السفلى

كانت النية معقودة لزيارة يافع السفلى بما فيها أبين إذ أن هناك قبائل يافعية كبرى كالناخبي واليزيدي والسعدي ويهر، ولكن لسوء الحظ لم يكن في الوقت متسع فاضطررت لذلك ولظروف خاصة إلى قطع رحلتي في بلاد يافع والعودة إلى مصر.
والأمل قوي في زيارة يافع السفلى في المستقبل القريب لنؤدي واجبنا نحو هؤلاء الاخوان الكرام.

العودة إلى مصر

وفي الساعة السادسة صباح يوم السبت ٣ ذي القعدة انطلق بنا السيد عمر قاسم في سيارته إلى مطار عدن ومن ورائه السيد حسين عبد الله العيسائي ولقد خيل إليّ أن كلا من الصديقين يريد أن يسبق الآخر بسيارته. فكلاهما منطلق كالسهم وفي بضع دقائق وصلنا المطار فشكرنا الله حيث وصلنا سالمين وشكرت الصديقين لما لقيته من الحفاوة البالغة والاكرام الواسع النطاق. وفي الساعة الثامنة حلقت بنا الطائرة المصرية تشق أجواء الفضاء في طريقها إلى القاهرة.

حلم تحقق

بعد عودتي إلى مصر في ذي القعدة سنة ١٣٧٣هـ [١٩٥٤م] بدأت في إعداد كتابي "في شرق اليمن "(يافع) للطبع ولكن حال بيني وبين ذلك المرض فقد قضيت أياماً في المستشفى وخرجت منه وأنا فاقد القوى وآن أوان السفر إلى الحجاز للقيام بعملي كمدرس منتدب من قبل الحكومة المصرية، لذلك أجَّلت طبع كتابي. وشاءت الأقدار أن أكمل رحلتي إلى بلاد يافع السفلى إذ انتهزت فرصة إجازة هذا الصيف.

ولقد شجعني على ذلك ما لقيته من العناية والاهتمام والتشجيع من إخواننا يافع بجدة.

واشتاق السيد حمزة عمر المفلحي لرؤية أهله وأولاده في خَلَّة فجد عزمه ولقد أحسن فقد كان خير عون لي في رحلتي إلى يافع الساحل وإلى خَلَّة.



الجالسون من اليمين ناصر علي الكلدي، صلاح البكري، سيف جبران، الحاج صالح الواقفون من اليمين محمد صالح بن الوالي، محمد علي الشعبي، صالح عبدالحميد المفلحي، حسن عمر، عوض سالم

أقلعت بنا الطائرة من مطار جدة صباح يوم الاثنين ٩ رمضان إلى عدن وفي المساء وصلنا مطار عدن وبعد إتمام الإجراءات الرسمية ذهبنا إلى دار السادة آل العيسائي وبصحبتنا السيد محمد سعيد الباشا الذي استقبلنا بالمطار فأكرمنا السيد حسين عبد الله العيسائي واحتفى بنا أكثر مما يحتفي الأخ بأخيه.

كان الوقت آنذاك صيفاً والجو حار وريح الصحراء اللافحة تسف الرمال وتقذف بها في وجوهنا وكان الصوم في هذا البلد شاقاً جداً لذلك أزمعنا واجمعنا على تقصير مدة الرحلة إلي أقصى حد ممكن. وكنا أردنا الرحيل في اليوم التالي لوصولنا ولكن قيل لنا إن عظمة السلطان عيدروس بن محسن عفيفي اليافعي سلطان يافع السفلى قادم إلى عدن فانتظرنا ثلاثة أيام فلما جاء تشرفنا بمقابلته واستأذنا من عظمته في السفر إلى يافع السفلى فدار الحديث الآتي بيننا :

قال عظمته : ما الغرض من السفر إلى يافع السفلى ؟

قلت : تأليف كتاب يسجل تاريخ يافع وأحوالهم الحاضرة من كل الوجوه..

قال : ما فائدتنا من هذا التاريخ ؟

قلت : إن يافع المسلمة التي تعيش حرة في بلادها، والتي تمثل في أخلاقها القبائل العربية الأصيلة ليس لها تاريخ يقرأه الناس.

وكرر عظمته السؤال فقال :

– ولكن ما الفائدة التي ستعود علينا من هذا التاريخ ؟

وتقدم إلى عظمته أو بعبارة أخرى تبرع للإجابة عني الشيخ أحمد محمد بن سبعة رئيس نادي الاتحاد اليافعي بعدن قائلاً :

- إن الأستاذ صلاح البكري يريد تأليف تاريخ ليافع يسجل فيه أعماكم العمرانية في يافع الساحل وينشر صورتكم وصور المدارس والمستشفيات التي أنشئت في عهدكم.

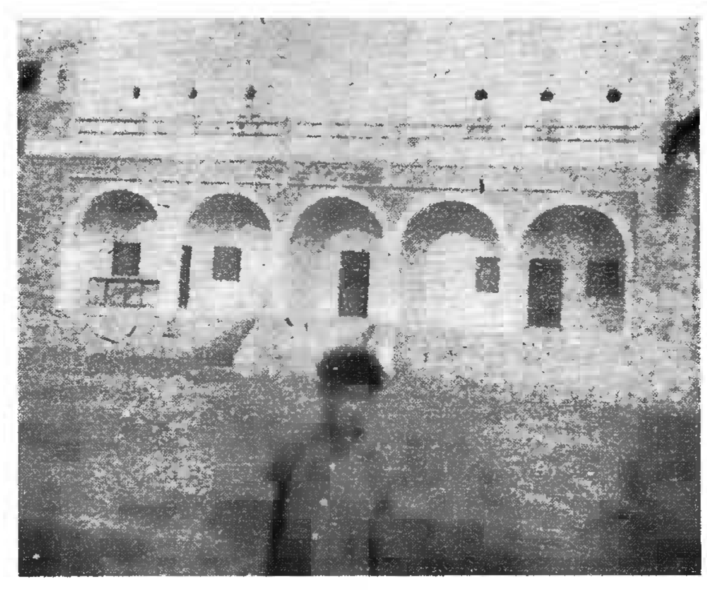
ولم يقتنع السلطان بهذه الإجابة وأخيراً أبدى عظمته استعداده لتقديم اثنين من جنوده لمرافقتنا إلى القارة. ولكن عظمته أبدى عدم ارتياحه لسفرنا في هذا الوقت نظراً لاضطراب الأمن في طريق القارة بسبب الفتنة القائمة بين الفضلي وفخيذة من يافع. وهو رأي سديد لذلك أجلنا السفر إلى يافع السفلى وعزمنا على زيارة يافع الساحل- وهي أهم منطقة في يافع السفلى- والاتصال برجالات يافع البارزين لأخذ معلومات واضحة عن أحوال يافع السفلى.

ولم تستمر إقامتنا بعدن أكثر من ليلتين فقد غادرناها إلى أبين أو يافع الساحل ورافقنا في هذه الرحلة الشيخ أحمد محمد بن سبعة.

انطلقت بنا سيارة الجيب في طريق ممهد وأرض منبسطة ولم تعترضنا صعوبات سوى حواجز نهر بنا الطبيعية الشامخة، ولكن سيارة الجيب دون غيرها تتغلب على هذه الحواجز الطبيعية وتكتسحها.

وفي الساعة العاشرة صباحاً وصلنا الحصن ووجدنا هذه القرية المتواضعة غارقة في لجة عميقة من الصمت والهدوء فقد كان معظم السكان نائمين،

ولا غرابة فهم يسهرون في ليالي رمضان حتى مطلع الفجر. ولم نخبر أحداً بقدومنا لكي لا نقلق القوم بالاستقبالات والحفاوات، وهكذا كان دأبنا في البلدان التي زرناها في شهر رمضان.



مدرسة الحصن

وليس هناك فندق في الحصن لذلك ذهبنا إلى المسجد وأخذنا نصيبنا من الراحة على الرغم من مضايقة الناس الذين كانوا في المسجد إذ أحاطوا بنا من كل جانب وأمطرونا بأسئلتهم ولم يشفقوا عليَّ فيتركوني لحظة أنام فيها. والغريب أن معظم أسئلتهم كانت حول جمال عبدالناصر وحول ما قامت به مصر من الأعمال في عهدها الجديد نحو شقيقاتها العربيات. ولاشك أن للإذاعة المصرية وبخاصة (صوت العرب) أثراً كبيراً في هؤلاء القوم.

بعد أن ادينا صلاة العصر ركبنا سيارة الجيب إلى مزارع أبين اليافعية الخصبة وحقولها الخضراء، وتوغلت بنا السيارة إلى ما بعد باتيس. وتحتل الأراضي الزراعية مساحات واسعة من السهل الساحلي الواسع العريض.

ويقع أكثر من نصف هذه الأراضي الزراعية في منطقة الفضلي والجزء الآخر داخل حدود يافع.



جانب من الأراضي الزراعية في يافع الساحل (أبين)[1]

ولقد وزع السلطان عيدروس بن محسن العفيفي كثيراً منها على المزارعين، على أن يأخذوا نصف المحصول والنصف الآخر للمالك ولبيت المال. وهو، أي المزارع، حر في زراعة الأرض، وأهم الغلات: القطن والموز والبطيخ والذرة. وزراعة القطن حديثة العهد وعليه تتوقف ثروة الأهالي. وينتج الضمد الواحد المزروع قطناً من خمسة إلى ثمانين فراسلة[2]. ومساحة الضمد الواحد سبعون خطوة مربعة والفراسلة ٢٨ رطلاً.

وعلى المزارعين أن يبيعوا محصول القطن للجمعية الزراعية التي تقوم بري الأرض بالثمن الذي تحدده. وهي، أي الجمعية، تأخذ مقابل الري ربع محصول القطن ومن

[1] - الصورة التي وردت في الأصل غير واضحة فاستبدلناها بهذه الصورة المقاربة.
[2] - وردت في الأصل "فوسُ" والصحيح فراسلة وهي معيار وزن يساوي ٢٨ رطلاً وجمعها فراسُ.

غير القطن تأخذ أربعين شلناً على الضمد الواحد و٨ شلنات لبيت المال وعشرين شلناً لصاحب الأرض.

نهر بنا

ونهر بنا الذي يروي أراضي أبين ينبع من قرب بلدة يريم باليمن ويتجه شرقاً ماراً بالنادرة ودمت ذات المياه المعدنية والتي بناها الأمير سيف الإسلام الحسن. ومن دمت ينحدر النهر نحو الجنوب الشرقي ويلتقي بوادي الشلال الذي ينبع قرب مدينة ذمار ويشق طريقه نحو الجنوب مخترقاً مناطق غنية بزراعة القمح والذرة والفواكه حتى يصل إلى حدود الشعيب وبلاد بني مسلم المفلحي. وهناك يلتقي بروافد أهمها وادي سِهْ ووادي حطيب ويستمر النهر في طريقه إلى أبين ويصب في البحر العربي.



نهر بنا حين يهب الحياة للأرض



ترعة من نهر بنا في يافع الساحل

وكانت مياه هذه النهر سبباً للنزاع والتطاحن والقتال بين القبائل الضاربة في حوضه وبخاصة في أبين اليافعية والفضلية، وكان الأمن هناك مفقوداً والحياة رخيصة. وكانت مياه النهر تذهب إلى البحر من غير جدوى. أما اليوم فقد اختفى ذلك التطاحن وحل محله الأمن والسلام، ولقد قامت الجمعية الزراعية الإنجليزية التي تكونت منذ ١٣ عاماً بحفر الترع وإنشاء السدود والخزانات، ونظمت الري على أحدث الطرق.

واستغلت مياه النهر لمصلحتها ولمصلحة الأهالي أحسن استغلال وأنشأت الطرق الزراعية للسيارات وغيرها ولا تزال أعمال الإصلاح والتعمير تشق طريقها في أبين بجدٍ ونشاط.



حراثة لتسوية الطريق



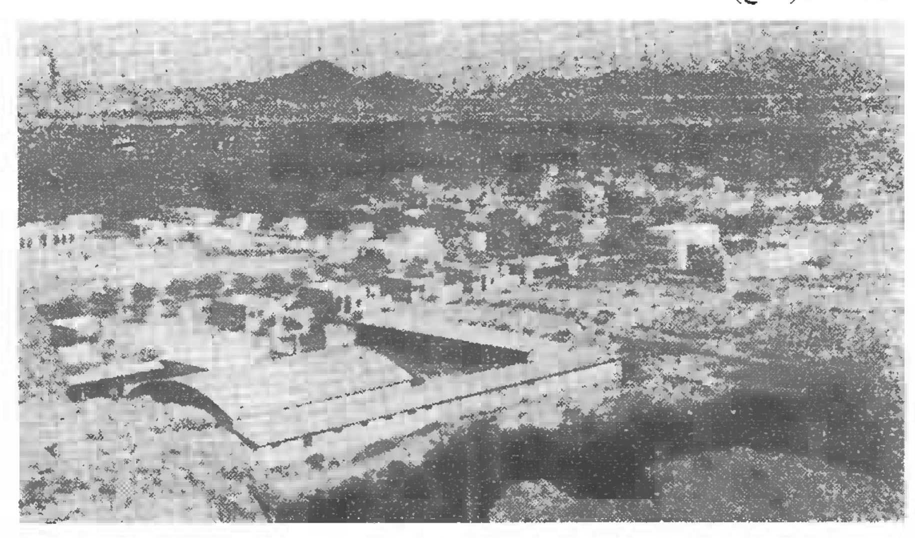
تراكتور

بعد أن تناولنا العشاء غادرنا الحصن إلى الرَّوَّاء. انطلقت بنا السيارة الجيب في طريق زراعي غير ممهد وكان الظلام حالكاً والمروج الخضراء تعج بالصمت والعدم، وكان الرفقاء السادة أحمد محمد بن سبعة وصالح عبدالرب بن متاش وصالح عبد اللاه عبيد يتحدثون بصوت يحطم ذلك السكون. أما السيد حمزة عمر المفلحي فقد كان على غير عادته قابعاً في ركن من السيارة غارقاً في لجة عميقة من التفكير أو الصمت. وصلنا الرَّواء الساعة التاسعة مساء وذهبنا إلى دار العاقل الشيخ محسن حسن بن عبيد المنصري فاستقبلنا بكل حفاوة وإجلال. والشيخ محسن من أبرز الشخصيات اليافعية في يافع الساحل ومن أكثرهم نبلاً وأبعدهم نظراً وله مكانة مرموقة ومنزلة عالية بين مواطنيه.

كانت ساعات حلوة مرت في أحاديث مختلفة وبعد أن تناولنا السحور استأذنا من مضيفنا الكريم وغادرنا القرية إلى وادي بنا حيث أدينا صلاة الفجر على الحصن الناعم وكان المنظر رائعاً فمزارع القطن ونبات البوص والنبق تحتل مساحات على جانبي النهر وعلى مقربة من هذه المزارع تقف سلسلتان من المرتفعات الشامخة الجرداء. وفي الساعة الثامنة عدنا إلى الحصن ثم إلى جعار.

جعار

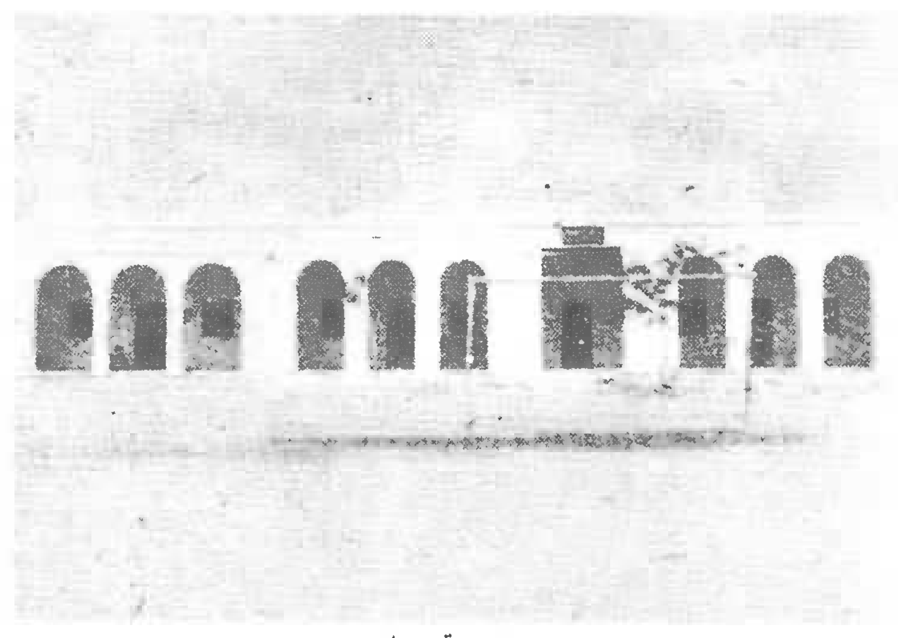
وجعار أحسن بلدة في يافع الساحل بها مدرسة ابتدائية مبنية على أحدث طراز وهناك سوق خاص لبيع الخضر والفواكه. وعلى تل مرتفع تقوم دُور جميلة لكبار موظفي الجمعية الزراعية من الإنجليز، وفي أسفل التل حديقة جميلة مليئة بأشجار الفواكه



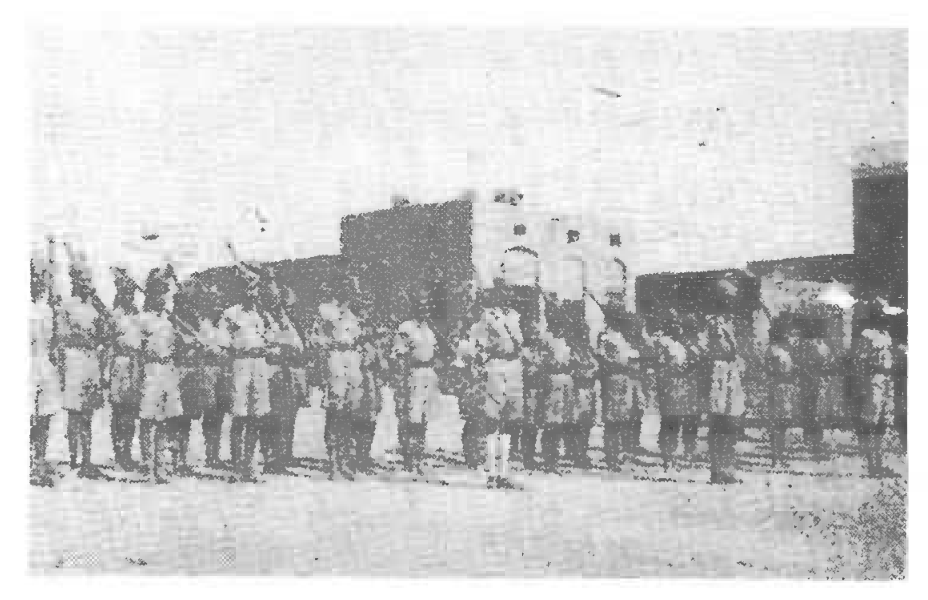
جعار

وغيرها وملعب للتنس ومكان لإصلاح السيارات وعلى مقربة من التل يقوم حصن خنفر التاريخي القديم، ولقد أخذت عوامل التعرية تهاجمه حتى فككته ولا بد أن يأتي يوم يصبح فيه كومة من الثرى، وفي جنوب خنفر مستشفى جديدة أنشأته سلطنتا يافع والفضلي وهو مجهز ببعض الآلات الطبية الحديثة، ولقد زرنا المستشفى وشاهدنا المرضى والصيدلية وغرفة الجراحة ومعمل التحليل فسَرّنا كثيراً ما شاهدناه من النظافة والاهتمام بشؤون المرضى. وحبذا لو يقوم المشرفون على المستشفى بزرع المساحات الخالية التي تقع داخل السور بالحشيش ونبات الزهور وبإنشاء حديقة يستظل بأشجارها المرضى والمريضات حين يغادرون سررهم للنزهة داخل المستشفى وليس ذلك عليهم بعسير فالتربة خصبة والماء متوفر.

مكثنا في جعار يومين كاملين وما أطولهما فالزائر لجعار لا يحتاج إلى أكثر من ساعتين، ولكننا اضطررنا للبقاء ريثما يعود السلطان عيدروس من عدن. وعندما جاء عظمته، وبعد أن تناولنا العشاء في قصره بالحصن، عدنا إلى جعار ومنها إلى عدن.



مدرسة جعار



القوة النظامية في جعار

الشعيب

كان سرورنا عظيماً حين أزمع السيد حسين عبدالله العيسائي مرافقتنا إلى الشعيب، ولقد غادرنا عدن بعد أن تناولنا السحور نتفادى حر الظهيرة، ولكن الإجراءات في لحج عاقت بيننا وبين السفر مبكرين فقد وجدنا الناس هناك رقوداً فاضطررنا للانتظار حتى مطلع الشمس. وهكذا مضت الليلة دون أن نذوق للنوم طعماً.

انطلقت بنا سيارة الجيب ولما وصلنا الملاح فضلنا أن نرتاح هناك ثلاث ساعات فقد أنهكنا التعب لقلة النوم ولانتظارنا ساعات في لحج.

وفي الساعة الثانية مساء غادرنا الملاح إلى خَلَّة. وللمرة الثانية نرى خَلَّة عاصمة بلاد المفلحي السفلى، ولقد كاد السيد حمزة يطير لشدة الفرح ولا غرو فهو هنا في خَلَّة بين أهله وأولاده.

وفي الصباح الباكر غادرنا خَلَّة في طريقنا إلى الشعيب وقد تسلح السيد حسين العيسائي ببندقية وأخذ يقفز الصخور بنشاط وجد على الرغم من نحافة جسمه والظاهر أنه مولع بحمل السلاح ومغرم بالرماية. وقبل الرحيل قالوا لنا إن الطريق إلى الشعيب على جانب كبير من السهولة فقوي عزمنا واشتدت رغبتنا لزيارة الشعيب ولكن ظهر لنا أن هذا بعيد عن الحقيقة. لقد اجتزنا عقاباً كأداء وصادفتنا هناك متاعب ومشقات لم أرَ مثلها في حياتي. فالممرات في عقبة أو عقاب الشعيب ضيقة ملتوية وعمودية. ولقد توقفت عضلات رجلي مراراً عن التمدد، الأمر الذي جعلني أتخلف أثناء سيري عن الرفقاء من حين إلى آخر. ولقد تأثر السيد حسين العيسائي حين شاهدني أكافح وأناضل المتاعب بين الصخور البارزة الخشنة وكان أحياناً ينقطع عن الرفقاء ليواسيني ثم يستأنف سيره ليلحق بهم.

وبعد صراع مع الطبيعة ثلاث ساعات وصلنا العوابل عاصمة الشعيب وذهبنا إلى منزل مدير المعارف فاحتفى بنا كثيراً ولقد حضر الشيخ قاسم المفلحي شيخ مشايخ المفلحي فكانت مفاجأة سارة جداً. وبعد العصر قمنا بجولة في البلدة وزرنا المدرسة وكان بصحبتنا الشيخ محمد الخلاقي وبعض شخصيات الشعيب.

بعد أن تناولنا العشاء في دار الشيخ محمد الخلاقي أخذنا نتحدث مع الناس الذين امتلأت بهم دار الشيخ الخلاقي على سعتها.

وتركت الناس ساهرين مع القات وحاولت أن أنام ولكن من غير جدوى. وبعد أن تناولنا السحور استأذنا من مضيفنا الكريم الشيخ محمد الخلاقي وشكرناه على حفاوته بنا، وغادرنا العوابل إلى خَلَّة وفي مقدمتنا الشيخ قاسم المفلحي.

والشعيب هضبة مرتفعة تحدها يافع من الشرق والجنوب والغرب وتحدها من الشمال اليمن.

وتقع العوابل وهي العاصمة على مساحة من الأرض الصخرية تكتنفها مساحات ضيقة من الأراضي الزراعية. وتروى الأراضي بمياه الآبار والأمطار التي تنزل في الصيف.



الشيخ قاسم عبد الرحمن المفلحي
والسيد حسين عبدالله العيسائي

وأهم الغلات الزراعية الذرة والقمح والدخن والبن والقات والورد ويستخرج من الورد ماء الورد الذي تشتهر به بلاد الشعيب وتقيم في الشعيب فخائذ السقلدي الآتية :

١ – العردف[1] – رئيسهم الشيخ محمد سعيد مطهر.

٢ – السِّيَل – رئيسهم الشيخ محمد الخلاقي.

٣ – الرباط – رئيسهم الشيخ مثنى ناصر.

٤ – القُزعي – رئيسهم الشيخ قاسم بوبك جرير.

٥ – العنفدي – رئيسهم الشيخ يحيى قاسم.

٦ – النجدي – رئيسهم الشيخ يحيى محمد الحكم.

والأحكام عرفية وقد يلجأون في بعض الأحوال الشخصية إلى المحكمة الشرعية بالضالع. وليس هناك في الشعيب علماء ولا قضاة شرعيون، وليس هناك مدارس سوى مدرسة ابتدائية واحدة في العوابل، فالجهالة ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها.

وكانت الشعيب تابعة لليمن وعندما ضعف حكام اليمن انفصلت الشعيب وصارت كل قبيلة خاضعة لشيخها.

وتحالفت الشعيب مع يافع على أن تحميها يافع ضد كل معتدٍ.

وفي السنين الأخيرة تدخل الإنجليز في شؤون الشعيب وساعدوا الشيخ محمد مقبل السقلدي ودعموه بالقوة.

وفي سنة ١٣٦٧هـ [١٩٤٧م] أنقلب الإنجليز ضد الشيخ محمد مقبل حاكم الشعيب حين رفض الموافقة على بعض مطالبهم وحين قاوم بالقوة وأثار القبائل ضدهم دكوا داره بالقنابل ولقد فر الشيخ محمد مقبل إلى اليمن والتجأ إلى الإمام وعيَّن الإنجليز نائباً عنه.

---

[1] - وردت في الأصل " الاردف" وهو خطأ.

والإنجليز يمدون الشعيب بحوالي عشرين ألف شلن سنوياً علاوة على مرتبات المعلمين وموظفي الصحة. ولقد انتشر الأمن بعد أن كان مفقوداً وكانت الفوضى ضاربة أطنابها في البلاد.

بنو مُسلم

تقع بلاد بني مسلم على وادي بنا الذي يفصلها عن الجُربة. وكانت جزءًا من الشعيب ثم انفصلت عنها عندما ضعف حكام اليمن. وتنازع عليها السقلدي والمفلحي وتدخل الإنجليز ومنعوا الفريقين المتخاصمين من الدخول في أراضي بني مسلم حقناً للدماء. وفي سنة ١٣٦٤هـ [١٩٤٥م] عين الإنجليز الشيخ قاسم بن عبدالرحمن المفلحي حاكماً عليها وأمدوه بجنود وسلاح وذخيرة. وهم، أي الإنجليز، يدفعون مرتبات الجنود النظاميين البالغ عددهم ١٢.

وينقسم بنو مسلم إلى أربع فخائذ :

١ – كلثوم

٢ – القدام

٣ – الثجر

٤ – ذي كَنيَة[1]

عاقلهم الشيخ محمد موسى بن علي سعد وهو معين من قبل الحاكم الشرعي وهو المفلحي.

[1] - وردت في الأصل "ذي كَنِيبة" وهو خطأ.

وتعتبر خَلَّة العاصمة لبني مسلم.

وتروى الأراضي بمياه الآبار والأمطار التي تنزل صيفاً وأهم الغلات البن والقمح والورد. وتنحصر الضرائب في غلات الأرض وفي الأغنام.

وهي تقدر بعشر المحصول وبريال واحد في السنة على كل ١٢ رأس غنم.

العودة إلى عدن

وصلنا خَلَّة في الساعة السابعة صباحاً وكانت النية معقودة على مواصلة السير إلى عدن، فلدى السيد حسين عبدالله العيسائي أعمال في عدن لا بد من حضوره لإنجازها، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فقد وجدنا السيارة التي انتظرتنا في خَلَّة معطلة ولقد بذل السائق وزميله جهوداً لإصلاحها ولكن من غير جدوى، وأخيراً وبعد غروب الشمس غادرنا خَلَّة فاندفعت بنا السيارة بين الأحراش وكان الظلام حالكاً والسماء تمطر رذاذاً، وكان لا بد من الذهاب إلى الضالع ليأخذ السائق التصريح بالمرور.

وفي الساعة التاسعة مساء غادرنا الضالع، وكان الهدوء شاملاً والجو معتدلاً والنسيم عليلاً، وعندما بدأنا نهبط في نقيل حردبة توقفت السيارة عن السير وحاول السائق وزميله إصلاح العطب ولكن ذهبت جهودهم أدراج الرياح. ومن الغريب أنه كان لكل منهما رأي في إصلاح السيارة فكانا لذلك يتبادلان الشتائم، وكان السائق وهو أجهل من رفيقه يمسك زميله ليقذف به في بطن الوادي، وكنت أنا والسيد حسين العيسائي صامتين لا نبدي حراكاً، ولم يكن في استطاعة أحد منا الذهاب إلى الضالع في تلك الساعة الحالكة الظلام لبعد المسافة وأخطار الضباع التي قيل أنها توجد في تلك

المنطقة، ومن المضحك أنه لم يكن لدينا أي سلاح، فلو هجم علينا ضبع لوجدنا فريسة سائغة له.

هكذا قضي علينا البقاء معلقين في قمة العقبة.

ونام السيد العيسائي على مقعد السيارة متدثراً بلحاف ليتقي برد هذه الجبال الشامخة ونام السائق في مكانه وافترش زميله الأرض، أما أنا فلم يبارحني الأرق وحاولت أن أنام في هذا الجو البارد الجميل فلم أتمكن، ولقد مللت الجلوس داخل السيارة فتركتها وجلست على صخرة تطل على حافة الوادي العميق المليء بالصمت والعدم، وكانت النجوم تطل من السماء فتلقي على هذه البقعة العالية من الدنيا نوراً ضئيلاً وعند مطلع الفجر ظهر القمر يصب أنواره البيضاء الوهاجة على سفوح هذه المرتفعات العالية، وعلى هذه الوديان والأخاديد العميقة، يا لروعة هذا المنظر وما أزكى رائحة أزهار العشب التي يحملها إلينا النسيم. وهؤلاء الراقدون ما شأنهم؟ أنهم ينعمون بنوم لذيذ، أما أنا فأمتع نفسي بجمال الطبيعة، أجل إني أشعر في هذه البقعة الصامتة براحة نفسية أنستني متاعب الأرق ومنغصاته، كما أنستني مخاوف الضباع المفترسة، إني لست شاعراً ولكني أجد في الهدوء العميق لذة ومتعة.

نهض السائق وزميله قبيل الشروق وأصلحا السيارة بعد محاولات قصيرة، فقد كان نور النهار أكبر مساعد لهما على إصلاح السيارة. واندفعت بنا السيارة وانطلقت مسرعة في قاع الوادي حتى وصلنا إلى الملاح، وبعد أن استرحنا قليلاً استأنفنا الرحيل، وفي الساعة الرابعة مساء وصلنا عدن بالسلامة.

تاريخ

ويافع من سلالة يافع بن زيد بن مالك بن زيد بن رعيني الحميري، ومنهم مبرِّح بن شهاب بن الحارث بن ربيعة بن سعد بن شعيب بن شرحبيل بن حجر بن عمرو بن شرحبيل بن عمر بن يافع الرعيني الصحابي، وهو أحد وفد رعيني الذي هبط مصر وكان ميسرة عمرو بن العاص يوم دخل مصر.

جاء في التاريخ الإسلامي إن مرتا القبطية وجدت نفسها أمام جثة روماني في بيتها فوقفت واجمة وتوجهت بصلاتها إلى الله أن ينقذها من موقفها الحرج، فبينما هي في صلاتها إذا بالباب يُفتح بعنف وإذا بصوت أجش مرعب يقول:" لقد قتلت هذا الروماني أيتها المصرية الخائنة". فانتفضت مذعورة وإذا بها أمام جنديين رومانيين يهددانها فتراجعت إلى الوراء، وفي تلك الساعة الحرجة دخل من الباب عربي كالح الوجه بَرَّاق العينين في يده سيف يقطر دماً وما أن وقع نظره على الجنديين الرومانيين حتى وثب صائحاً: لن تفلتا مني ورب الكعبة. فأغمي على تلك المرأة، وبعد أن أفاقت وجدت نفسها مستلقية وعلى مقربة منها ثلاث جثث والأعرابي جالس إلى جانبها، ذلك الأعرابي هو حسان بن زياد اليافعي الذي التحق هو وأخوته وأبناء عمه بجيش عمرو بن العاص، واجتازوا نهر النيل في طليعة جيش المسلمين وركزوا العلم في الضفة الغربية للنيل، ومنذ ذلك اليوم سميت تلك المنطقة "الجيزة"، وهذا الجيش هو الذي كان الخليفة عمر بن الخطاب يعنيه عندما كتب لعمرو بن العاص يقول: لا تجعل بينك وبين قومك بحراً فأبن سوراً يحمي المسلمين في جيزة الفسطاط. وقد أراد عمرو أن ينزل عند رغبة أمير المؤمنين ولكن اليافعيين ومن كان معهم من أبناء القبائل العربية

أبوا إلاَّ أن تظل مكشوفة من أمامهم ومن ورائهم، وقالوا لقائدهم عمرو بن العاص: دعنا من السور يا عمرو فإنَّما أسوارنا صدورنا.

وهناك علماء محدثون من يافع منهم عبد الله بن وهب وعبد الله ابن سعد بن الصعبة وغيرهما. ومن متأخريهم قطب الحرم المكي عبد الله ابن أسعد اليافعي.

يافع واليمن

كانت بلاد يافع حتى أواخر القرن الحادي عشر إحدى المقاطعات الملحقة باليمن. وكان إمام اليمن وهو في الوقت نفسه تابع للدولة العثمانية يعين أحد ابنائه حاكماً على يافع وقد يعين هذا الأمير من يثق به ويعتمد عليه على يافع بالنيابة عنه ويظل هو في اليمن. ولعل آخر من عُيِّن من الأمراء اليمنيين على يافع هو الإمام عبد العلي بن أحمد علي الأهدل الحسين[1]، ولعل آخر نائب أو حاكم هو صلاح بن أحمد مسمار، وهو الذي أصلح الطرق ومهَّد العقاب حتى جعلها صالحة لسير الدواب والمشاة، وأهم هذه العقاب نقيل بني بكر وذَبُوب وتُوزلي وشَرْعَة. والأمير الحسين ابن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد هو الذي أنشأ مسجد النور سنة ١٠٨١هـ [١٦٧٠م] وكان مركز إدارته في بلدة مسجد النور، ولا تزال الدار التي كانت تصدر منها الأحكام والأوامر قائمة في مسجد النور حتى اليوم.

[1] - هذه الرواية عن هذا الإمام مشكوك فيها ولا نجد لها سنداً في المصادر التاريخية باستثناء ما أورده المؤلف من وثائق هي الأخرى موضع شك لتناقض ما ورد فيها من وقائع وتواريخ.

وعندما سرى الضعف في حكام اليمن لضعف الخليفة العثماني وأزداد التخاذل والتناحر على المراكز قلّت الرقابة على يافع إلى حد كبير وأهملت شؤونهم كل الإهمال وكانت النتيجة أن أخذت قبائل يافع تنفصل عن سلطان اليمن تدريجياً حتى انفصلت انفصالاً تاماً، وأخذت كل قبيلة تلجأ في حل مشاكلها وفي إصلاح ذات بينها إلى رجل منها ذكي قوي الشخصية بعيد النظر محب للخير.

ولما تولى الحكم في اليمن الإمام حسين بن مهدي بن عامر[1] طمع في ضم يافع إلى اليمن. كان ينظر إلى يافع كعدو قوي الشكيمة جاثم على حدوده ومن أجل ذلك جمع بعض القبائل في رداع وأرسلهم بقيادة عامر بن صالح لمحاربة يافع في جمادي الأولى سنة ١١٠٢هـ [١٦٩١م] .

وبلغ الخبر يافع أن جيش الإمام سيهجم عليهم من ناحية قعطبة فاجتمع عدد كبير منهم على مقربة من قعطبة لصد هجوم الزيود، ولكن عامر بن صالح فاجأ يافع بالهجوم على خرفة، وهناك أصطدم بقوم من يافع واستمرت المعركة حامية الوطيس من الصباح حتى غروب الشمس وانسحب الزيود إلى قعطبة تاركين وراءهم عدداً من القتلى والجرحى.

ولقد كان لهذه الهزيمة التي لم يتوقعها الإمام أثر سيء في الزيود، وأرادوا الأخذ بالثأر، فحشد الإمام ثلاثين ألف مقاتل في قعطبة وجعل عليهم ابنه الأمير قاسم وهجموا على خرفة ليلاً واحتلوها وقتلوا كثيراً من حماتها. وكان هذا النصر الذي حازه الزيود أكبر مشجع للإمام على الاستمرار في محاربة يافع فقد سار بنفسه إلى دمث وجهز عشرين ألف مقاتل وأرسلهم إلى جُبَن للهجوم على جبل حُجيل ريو وأرسل إلى جيشه المرابط

---

[1] - الصحيح الإمام المنصور محمد بن أحمد بن الحسن، وكانت حملته على يافع عام ١١٠١هـ/١٦٩٠م .

في خرفة ليهجموا على جبل حُجيل تيم. وهجم الزيود في يوم واحد على حُجيل ريو وحُجيل تيم. واجتمعت بعض قبائل يافع بجربه غالب واتجهوا إلى ريو. ونهض السلطان معوضة العفيفي وجمع من بني قاصد عدداً كبيراً وسار بهم إلى تيم. وعلى سفح الجبل تلاقى الزيود ويافع واشتدت المعركة وانتهت بهزيمة جيش الإمام بعد أن قُتل عددٌ كثيرٌ من الفريقين، ثم عُقد صلح تعهد فيه الفريقان ألاَّ يتعدى أحدهما على الآخر.

يافع تغزو اليمن

ولم تطل مدة هذا الصلح أو هذه الاتفاقية فقد أخذ الإمام يتحرش بيافع ويناوش أطراف حدودهم من حين إلى آخر مخالفاً بذلك شروط الاتفاقية القائمة بينه وبين يافع. فالإمام إذن هو البادئ بنقض الاتفاقية، ولقد غرَّه همود يافع وخمودهم داخل حدودهم فأخذ يحشد القبائل في الخربة وما حواليها حتى بلغ عددهم نحو الأربعين ألف مقاتل.

وبلغ يافع نبأ احتشاد الزيود لمحاربتهم فعقدوا النية وأجمعوا أمرهم على أن يهاجموا اليمن قبل أن تهاجمهم.

اجتمع عدد كبير في المحجبة. وفي يوم الاثنين سلخ ربيع الأول سنة ١١٠٣هـ [١٦٩١م] ساروا إلى عنتر وقضوا هناك ليلة، وفي صباح الثلاثاء ساروا إلى سوق الثلاثاء حيث تجتمع فيه كثير من قبائل يافع، وهنا استطاع قادتهم أن يحشدوا جموعاً كثيرة من مختلف العشائر اليافعية شباناً وشيوخاً وكهولاً. تجمعوا وهم في أشد ما

يكون من الحماسة والشجاعة والتلهف إلى القتال والنضال. ساروا نحو الخربة حيث تتركز قوات الزيود وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ثم هجموا على الزيود واشتبكوا معهم في قتال عنيف استعملت فيه البنادق والسيوف والخناجر. ولما بلغت المعركة نهايتها من العنف والقسوة، حاولت بعض قوات الإمام الفرار ولكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً، فقد أحاط يافع بهم من كل الجهات ولم يتركوا لهم منفذاً للفرار، وأخيراً انسحب الزيود إلى داخل ديار الخربة وتحصنوا بها وأخذوا يقاومون مقاومة اليائس المستميت، ولكن الجوع أخذ يضايقهم لشدة الحصار فاضطروا إلى أكل لحوم الجمال والحمير.

وأرسل الأمير يوسف كتاباً إلى الإمام يشكو إليه ما حل بجيشه من الجوع والبوار، وطلب إليه السماح له بالانسحاب والعودة إلى داخل حدود اليمن، ولكن الكتاب وقع بين يدي يافع فلم يصل إلى الإمام، ولما بلغ الأمير ذلك طلب الهدنة من يافع والانسحاب ولقد أجابه يافع إلى ذلك وعاد بفلول جيشه إلى اليمن.

ومرت شهور ساد فيها الهدوء ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة فقد سار الإمام بنفسه إلى الزاهر لمحاربة يافع. ولقد علم يافع أن الإمام يعد عدته في الزاهر لمهاجمتهم داخل حدودهم، فسارت جموع كثيرة منهم إلى جبل العر في أول رمضان سنة ١١٠٤هـ [٦مايو ١٦٩٣م] وقد انحاز السلطان أحمد بن علي الرصاص وأتباعه إلى الإمام ضد يافع لأسباب غير معروفة. ولكن ذوي الرأي والفكر من يافع استطاعوا أن يؤثروا في السلطان أحمد بن علي الرصاص ويضموه وقومه إليهم، كما أنهم أرسلوا للسلطان معوضة العفيفي. فلبى نداءهم وقام من أبين إلى القارة في طريقه إلى العر ولكن السلطان وافاه الأجل في القاره يوم ١٣ رمضان ١١٠٤هـ [١٥مايو١٦٩٣م]

وقام بالأمر بعده ابنه السلطان قحطان. وفي أواخر رمضان وصل السلطان قحطان إلى العر بجموع كثيرة من عشائر كلد وبني قاصد.

وفي ٢ شوال سنة ١١٠٤هـ [٦يونيو١٦٩٣م] وصل إلى العر السلطان أحمد بن علي الرصاص وعشيرته، وتعاهد الجميع على أن يكونوا كتلة واحدة يدافعون عن بلادهم بكل ما أوتوا من قوة ولا يتزحزحون قيد شعره حتى يهلكوا جميعاً.

تقابل الفريقان، يافع والإمام، في الدَّرب وكانت معركة عنيفة قتل فيها عدد كبير من الفريقين وانسحب الإمام بفلول قواته إلى البيضاء ورابطوا بها.

أما يافع فقد احتلوا الزاهر وأجمعوا أمرهم على مطاردة الإمام داخل حدوده؛ لذلك ساروا إلى البيضاء ورابط جماعة منهم في نجد السَّلف ليمنعوا هروب الزيود من البيضاء، واشتبك الفريقان في معركة عنيفة واشتد ضغط يافع وهجومهم على مدينة البيضاء من كل الجهات وحاصروا الزيود فيها حصاراً شديداً حتى عجزوا عن المقاومة لنفاذ الذخيرة والمؤن لذلك عرضوا الهدنة على يافع على أن ينسحبوا من البيضاء وقد أجيبوا إلى ذلك وخرجوا من المدينة إلى نجد السلف في طريقهم إلى صنعاء.

ولكن المرابطين من يافع في نجد السلف هجموا عليهم بالسلاح الأبيض وقتلوا حوالي أربعين شخصاً منهم وأسروا كثيراً من أسلحتهم ومؤنهم، وعادت فلول قوات الإمام إلى صنعاء بعد أن جردوهم من الأسلحة، وكان عدد القتلى من يافع في نجد السلف خمسة عشر مقاتلاً.

قلعة أبين

في الوقت الذي كانت عشائر يافع تتجمع وتتكتل في العر استعداداً لمنع زحف قوات الإمام حاصر جماعة من الزيود قلعة أبين وكان بها عدد من يافع ومنعوا عنهم الماء والطعام ثم هجموا على القلعة ودخلوها وقتلوا معظم حماتها، ولم يستطع يافع استرداد القلعة لانشغالهم بمحاربة الإمام في البيضاء ونجد السلف، فلما انتهت معركة البيضاء اجتمع السلطان قحطان ابن معوضة العفيفي والسلطان عبدالله بن أحمد الفضلي والسلطان أحمد بن علي الرصاص وعدد كبير من عشائر الموسطة، اجتمعوا في سيلة كلد أسفل ذي ناخب، وتعاهد الجميع على طرد الزيود من قلعة أبين واستردادها بأي ثمن. وفي جمادي الأولى سنة ١١٠٥هـ [١٦٩٤م] هجموا على القلعة واحتلوها عنوة وقتلوا حماتها الزيود.

وفي محرم سنة ١١٠٦هـ [١٦٩٤م] أرسل الإمام إلى يافع ليقابلوا ابنه الأمير محسن في بلاد الشاعري لعقد صلح، وسار وفد من يافع إلى بلاد الشاعري ولكن الإمام نكث بوعده فعاد الوفد اليافعي إلى بلاده.

وفاة السلطان صالح بن أحمد بن هرهرة

في شهر شوال سنة ١١٠٦هـ [١٦٩٥م] توفى السلطان صالح فاجتمع قوم من عشائر يافع العليا في المحجبة وولوا ابنه السلطان ناصر فحذا إحسان أبيه في العمل لإصلاح ذات البين بين قبائل يافع العليا.

وقعة الزاهر[1]

في سنة ١١٠٧هـ [١٦٩٦م] طمع الإمام قاسم بن حسين المهدي في احتلال يافع وبسط نفوذه عليها، فحشد لذلك نحو ثلاثين ألف مقاتل في الزاهر، ولما علمت يافع هرعت جموع كثيرة من يافع العليا والسفلى يتقدمهم السلطان ناصر بن أحمد بن هرهرة والسلطان قحطان بن معوضة العفيفي والسلطان أحمد بن علي الرصاص ورابطوا في العر لصد زحف جيش الإمام. وتقابل الفريقان فكانت معركة عنيفة لا هوادة فيها ولا رحمة.

وأخيراً أنسحب جنود جيش الإمام تاركين خلفهم عدداً كبيراً من القتلى والجرحى، ودخل يافع الزاهر واستولوا على ما فيها من مؤن وذخائر.

وقعة لحج

في شهر رجب سنة ١١٠٧هـ [١٦٩٦م] اجتمع بضع مئات من يافع السفلى وساروا إلى لحج وحاصروا قلعة الرعارع ثلاثة أيام وكان فيها نحو ألف مقاتل من الزيود.

ولما رأى يافع أن لا فائدة من الحصار هجموا على القلعة بالسلاح الأبيض، ولقد أبدى الزيود شيئاً كثيراً من الشجاعة والبسالة في مقاومتهم ليافع، وأخيراً سلموا القلعة ليافع، ويظهر أن الجوع هو الذي دفعهم للتسليم من غير قيد ولا شرط فقد انتهى

---

[1] ـ الصحيح الزهراء شرق السوادية وقد كانت مسرحا للقتال بين يافع والبيضاء ضد قوات الأئمة الزيدية.

زادهم كما أن القتلى منهم بلغ حوالي أربعمائة. أما عدد القتلى من يافع فكان مائة وثمانين.

وفي أول رمضان سنة ١١٠٧هـ [٤أبريل١٦٩٦م] طلب الإمام الصلح فأجابه يافع إلى ذلك. وأراد الإمام أن يبرهن على حسن نيته ويقوي الصلة بينه وبين يافع وأنصارهم لذلك أرسل إلى السلطان أحمد بن علي الرصاص يبدي رغبته في زواج ابنه محسن من ابنته سلمى وتم الزواج في ربيع الثاني سنة ١١٠٨هـ [١٦٩٧م].

وقعة المعسال

ولكن الصلح لم يظل فقد تعكر فجأة. ففي رجب سنة ١١٠٩هـ[١٦٩٨م] حشد الإمام أربعين ألف مقاتل من حاشد وبكيل وسفيان وعلى رأس هذا الجيش ابناه محسن ويوسف.

وبلغ يافع نبأ هذه الحركات التي يقوم بها الإمام في المعسال تمهيداً لغزو بلادهم، فاجتمع ألوف من مختلف العشائر اليافعية لصد هجوم الزيود، وأصطدم الفريقان فكانت معركة عنيفة بالبنادق والسلاح الأبيض وكاد يافع ينهزمون لتفوق عدوهم في العَدد والعُدد، ولكن النصر كان حليفهم في نهاية المعركة وعقدت هدنة بين الفريقين لمدة سنة. وحين انتهت الهدنة بدأت الاعتداءات من الفريقين تظهر حيناً وتخمد حيناً آخر حتى جاءت سنة ١١١٣هـ [١٧٠١م] فعقد صلح بين يافع والإمام قاسم بن حسين المهدي، وكان الواسطة في الصلح الأمير عمر بن جعفر الكثيري، وكان الأمير ميالاً للعهد ومحباً للسلام فقد أخذ يقود إلى يافع ويرسل لشيوخهم وقادتهم الهدايا والعطايا الثمينة.

احتلال عدن

في شهر جمادي الثانية سنة ١١١٤هـ [١٧٠٢م] سار السلطان قحطان بن معوضة العفيفي بقوم من يافع إلى عدن ودخلها بدون مقاومة من سكانها وأقام بها ثمانية أيام، ثم غادرها عائداً إلى القارة بعد أن أقام عليها الشيخ صالح ابن سليمان كما أقام حسن بن غرامة حاكماً على لحج.

الإمام ينقض الصلح

في سنة ١١١٤هـ [١٧٠٢م] وقبل أن ينتهي الصلح جهَّز الإمام جيشاً من قبائل حاشد وبكيل المعروفة بقوة الشكيمة وجعل عليهم ابنيه إبراهيم وعبدالرحمن وأرسلهما إلى راكب لمحاربة يافع واخضاعهم تحت سلطته. وما كانت هذه الحركات تُخفى على يافع فقد قام السلطان قحطان بقوم من يافع واتجه إلى حيث يعسكر الزيود، وقامت الحرب بعنف قُتل فيها عدد كبير من الفريقين، وأخيراً أنسحب الزيود تاركين خلفهم كثيراً من الأسلحة والمؤن. وأخذ يافع يطاردون فلولهم حتى وصلوا إلى جُبَن وخرَّبوها ثم واصلوا سيرهم إلى دمت وهناك غنموا غنائم كثيرة وعادوا بها إلى القارة.

وثائق تاريخية[1]

عثرنا خلال رحلتنا بيافع العليا على وثائق تاريخية مضى عليها حوالي ثلاثة قرون. ونحن ننقلها هنا لتلقي ضوءًا على التاريخ اليافعي اليمني.

"بسم الله الرحمن الرحيم

وبالله نستعين على أمور الدنيا والدين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين،

أنه لما كان يوم الخميس الواقع عام ١٠٧٥هـ [١٦٦٤م]خمسة وسبعين من بعد الألف وهذه علامات التأسيس المتقدمات في ولاية شرف الإسلام والمسلمين المتوكل على الله رب العالمين الناصر لدين الله الإمام المستعلي قبل سيدنا الحسين بن الحسن بن الإمام القاسم في مرور يافع الجبل على يد العامل صلاح أحمد مسمار وعما قامت معه من جماهير الأنساب بكسر اليمن على يد الحاكم بأمر الله الإمام عبدالعلي ابن أحمد بن علي الأهدل الحسيني بأنه تولى فيها دهراً طويلاً وسكن أوتاد جبالها المعلومة وامتلك الجوانح البرية والنواحي البحرية وبايع عليه السلطان قحطان بن معوضة العفيفي والشيخ الهرهري وأهل سبأ بن يشجب وأهل قبيله وأهل رها وقلدوه ما بأيديهم وبايعوه مبايعة الحُكم والاحتكام والقيد والالتزام ومبايعة السيوف والأقلام واستقامت ولايته في تلك البلدة باستقرار واستمرار بحق واستحقاق واتصل الإمامة العلوية من ميراث النبوة وأقام بالفروض والواجبات والسُنن القائمات وأقامت له الخطباء أن يدعوا له بالنصر والتأييد وقام بأمر مستكفيهم في البلد المعلومة في

[1] - هناك شك في صحة انتساب تلك الوثائق التاريخية إلى التواريخ التي دوّنت عليها، لأن الحسين بن الحسن لم يكن إماماً قط وإنما كان والياً على جهات المشرق ، ثم التناقض بين الأسماء والتواريخ الواردة فيها (للمزيد ينظر: السلطنة العفيفية، د.محمود السالمي، دار الوفاق للدراسات والنشر، ط٤، ٢٠١م، ص٩١-٩٣)

المبايعة الصحيحة الشرعية وتولى (......) (......) بشكر الله وطاعته بالإقليم المشهور وتشديد الوحدة بالجزيرة البرية العربية بيد سيف السنة بهذا اللقب المذكور وبالعلم والصلاح والتحرير على المذهب السلفي بالحديث والنحو المستقيم بأمر الله وطاعته وصحة بيعة شاملة تامة حازمة لازمة مشمولة بحدودها الأربعة في ولاية الإمامة العلوية فيما أولاه مولاه من ميراث النبوة على المذهب السلفي في هذا التقييد المثبت في التزام البلد والأوطان المعلومة للوقت المقبل المستوتر بانقياد الأمر والنهي واقتضت المصلحة الجامعة في مجلس كل طرف في عقد هذه البيعة في شرطها وأحكامها بيد الإمام المغترض عن الطاعة في ضمانة الإيمان المكتسب المنسوب بالخلع والتقلد والحمد لله على ولاية الإمامة العلوية وعلى سوابق الإسلام في عقد هذه الأمانة المشهورة بحضور العدول الثقات بمن لم يكتبوا وأذنوا أن يكتبوها وأشهد أن لا إله إلا الله ونشهد أن محمداً عبده ورسوله والحمد لله رب العالمين وصح هذا الصحيح بيد العامل صلاح أحمد مسمار.

الإمام	الإمام
عبدالعلي بن أحمد	**عبدالعلي بن أحمد**
علي الأهدل	علي الأهدل
الحسين	الحسين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قيم الإمامة العلوية مما امتد به واستقر من ميراث النبوة في مصالح الإسلام وصلاح الأعمال واتباع الشرع الشريف وأشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذه علامات ما تقدم فيما استقرت الإمامة العلوية في البلدة المعلومة بلاد لوط الواردة إليها نواحي يافع الجبل وهي المتوسطة ما بين حدة البحر المالح ويافع الجبل ساحل أبين بعد مرور تلك الدولة الإمام المستعلي الحسين بن الحسن بن الإمام القاسم على يد صلاح بن أحمد مسمار وجماهير الأنساب بكسر اليمن دهراً طويلاً قام انتهاء الارتحال وتولى عن البلدة المعلومة السلطان صلاح الفضلي وخلايفه (خلفاؤه) وولاّه الإمام المستعلي ما بيده في مبايعة بكسر اليمن المعمور ولاّه وقلّده ما بيده في مرور بلدته وصح مستنيب (كذا) في بلدته المشتملة بحدودها الأربعة بعد خروج الخلايف الطايفات من القيحاف والمقاويع مقاويع حلمة القيحاف إلى امفيحية إلى غربي حلمة وإلى الروند والاميه وإلى النبوة وإلى حبيل برق[1] وإلى الرمالة ومخشاعية إلى جعار وإلى الجبيل وإلى قلعة خنفر وصح ما سمي من حد وبلد وأوطان وهاملات الأطيان إلى عرض حد اليافعي بنظر اعترف الحدود وانصراف من وصل بالمرور القادم بالتأسيس المتقدمة بالأرض المعلومة إلاّ أنها وجدت الدولة الإمامية تلك البلدة مطموعة وسلطتهم مطموعة وما صارت لهم تحت القبض القادم إلى بعد اظهار مناد الإمامة العلوية في صحيح الرقم الواقع بعد ما استولوا على مغلات البلاد المعلومة وصح هذا الرقم بيد السلطان صلاح الفضلي وخلايفه بانقياد إلى الإمام المستعلي وتقدم الرقيم في وقت طلب

[1] - وردت في الأصل "برف" وهو خطأ.

الخليفة الطايفة وتكفل الإمام المفترض بما يلازم البلاد من الخلايف والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين.

صح في عام وفا الميه من بعد الألف [١١٠٠هـ] في صحيح الإمامة وجماهير الأنساب بكسر اليمن.

وكتب ذلك الصحيح صلاح بن أحمد مسمار

الإمام

عبدالعلي بن أحمد الاهدل

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين على أمور الدنيا والدين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين وهذه علامات التأسيس المتقدمة عما قام به شرف الإسلام والمسلمين خليفة رسول الله أمير المؤمنين الإمام عبدالعلي بن أحمد بن علي الأهدل الحسيني فلما اكتسب الإمامة من ميراث النبوة فلما قام بالإمامة العلوية باليمن المعمور قصد بلاد لوط ساحل أبين وجبله يافع الحيد فلما وصل سكن فيها واستمر دهراً طويلاً وبعد شدد عليهم سبيل ربه من الحكمة والمواعظ والحسنة ما قبل الله أعمالها وأمسك البحر ودجى الأرض وأمسك رواسي الجبال وجاءت عليه الخلافة دار تحل من ما كانت بيده تحت القبض القادم من النواحي البحرية والجوانح البرية بعد الارتحال بايع

ما كانت بيده من البلد المعلومة على السلطان سيف بن قحطان بن معوظة العفيفي وصحة البيعة في ساحل أبين مشمول إلى شاطئ البحر ويافع الجبل مشمول وبايعه ذلك بيعة سعيدة شريفة ميمونة بها السلامة في الدين والدنيا مضمونة بيعة صحيحة شرعية بيعة ملحوظة مرعية بيعة متفق بها على الاجتماع عليها الاجماع واعتقد عليها من سمع الله وأطاع وأبذل فيها من كل أمر مستطاع وأقر الخصم وانقطع النزاع وبايعه بذلك فيما قل وجل وأولاه الأمور والأحكام وأرباب المناصب والاحتكام وحملة العلم والأعلام وحماية السيوف والأقلام وأعطاه التصرف بالإمامة وقلده ذلك ما به التقليد من الحكم والاحتكام والتزم بالقيد والالتزام وبايعه بيعة لا يحل عقدها ولا ينبذ عهدها بيعة لازمة حازمة دائبة دائمة تامة عامة شاملة كاملة صحيحة متبعة وصحه بالمبايعة بالمتابعة وأجاز بأحكامها على نفسه وأمضاها ودخل تحت طاعتها وعمل .....، بمقتضاها وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وصح هذا الصحيح بيد السلطان سيف بن قحطان العفيفي مصحح بتشديد الوحدة بكسر اليمن في مدينة إب ذات اليمن بالقلم المصهور عن يمين البيت في صحيح الإمام المستعلي الإمام عبد العلي بن أحمد بن علي الأهدل الحسيني وفي حضور جماهير الانساب القايمين بما أمر الله ورسوله والحمد لله رب العالمين.

صح ذلك في عام أثنين وخمسين ومية وألف في شهر الحج [١١٥٢هـ]

الإمام	الإمام
عبدالعلي بن أحمد	**عبدالعلي بن أحمد**
علي الأهدل	علي الأهدل

يافع بحضرموت

حين ضعفت سلطة آل الكثيري[1] وانكمش نفوذهم في حضرموت لتخاذل أمرائهم وتنافرهم وتنافسهم على الحكم هب الأمير بدر بن عبدالله ابن جعفر الكثيري الملقب بأبي طويرق والمولود سنة ٩٠٢ هـ وأخذ يبذل الجهود لإنقاذ ملك آبائه وتوحيد صفوف قومه وجمع كلمتهم، ولكنه على الرغم من إخلاصه في الدعوة لم يجد آذاناً صاغية ولا قلوباً واعية، بل لقي من بعض أقربائه معارضات ومعاكسات اضطر بسببها إلى أن يغادر حضرموت إلى اليمن ليأتي بقوم آخرين يسترد بهم الملك الضائع والحكم المفقود.

وصل صنعاء في أوائل الحجة سنة ٩٢٥هـ [١٥١٩/١١/٢٤م]فأكرمه الإمام واحتفى به ولما طلب من الإمام أن يمده بجيش لإحياء ملكه بحضرموت أمره أن يبقى في صنعاء حتى نهاية شهر ذي الحجة ليشاهد وفود القبائل التي تأتي من أطراف اليمن لتهنئته بالعيد وليختار بعد ذلك القبيلة التي تعجبه.

ولقد وقع اختياره على يافع فأخذ منهم نحو خمسة آلاف مقاتل ورحل بهم إلى حضرموت، ولما علمت نهد بقدومهم احتشدت جموعهم في بحران لصدهم ومنعهم من الزحف إلى المناطق الوسطى بحضرموت.

وتقابل الفريقان وكانت معركة عنيفة استعملت فيها البنادق والخناجر والرماح والسيوف وكان النصر حليف الأمير بدر وقومه يافع واستأنف بعد ذلك الرحيل حتى وصل إلى

---

[1] - وردت في الأصل "الكفير" وهو خطأ.

شبام في رجب سنة ٩٢٦هـ[١٥٢٠م] واحتلها وحصنها بعدد كبير من يافع الموسطة، ثم سار إلى تريم واحتلها في محرم سنة ٩٢٧هـ وطرد منها محمد بن أحمد بن جودان، وحصنها بقوم من يافع لَبْعُوس واتخذها مركزاً لسلطنته، وحصن سَيْئُون بقوم من يافع الضُّبَي، وسار إلى هينن واستولى عليها، وأرسل عدداً كبيراً من يافع إلى السلطان محمد بن عبدالله ابن جعفر الكثيري حاكم الشحر لتحصين المدينة من غارات قبائل البادية وقُطَّاع الطرق.

ومرت الأعوام تلو الأعوام وسلاطين آل كثير بحضرموت يعتمدون على يافع في تقوية مركزهم وتوطيد دعائمهم، وفي عهد السلطان علي ابن بدر الكثيري بدأ نفوذ يافع يقوى وسلطتهم تنمو وكلمتهم تعلو، ولما مات السلطان علي سنة ١١٠٧هـ قام بالأمر بعده السلطان عيسى بن بدر الكثيري وكان سليم النية ضعيف الإرادة ترك شؤون دولته لحاشيته وبطانته ولحكام المقاطعات فأصبح ليافع النفوذ المطلق والكلمة العلياء.

انتشار الزيدية في حضرموت

تألم الأمير عمر بن جعفر الكثيري لحالة قومه وانحلال ملكهم، وكان كبير النفس قوي الإرادة عالي الهمة، أزمع وأجمع على استرداد بلاده مهما كلفه ذلك ومهما اعترضته من الصعاب والعراقيل. أخذ يراسل إمام اليمن مستنجداً به، لاجئاً إليه، طالباً قوة من خيرة الرجال ليقضي على نفوذ يافع ويعيد للسلطنة الكثيرية هيبتها وسلطتها.

ولما أبدى الإمام استعداده لتحقيق أمنيته سار إليه فأحتفى به الإمام وأصدر أمره إلى الحريبي عامل تهامة بإطلاق سراح المسجونين من قبائل حاشد وبكيل[1] وتجهيزهم بالسلاح والذخيرة والمؤن وإرسالهم إلى الشحر لاستردادها من أيدي يافع، ولعل

[1] - وردت في الأصل "بكير" وهو خطأ.

الأمير عمر ابن جعفر تعهد للإمام بالخضوع لسلطانه بعد القضاء على يافع، وليس من شك أن الإمام يرمي بهذه المساعدة نشر مبادئ الزيدية بحضرموت وهي خطوة لبسط نفوذه على الحضارم، وعاد الأمير عمر بن جعفر الكثيري بقومه الزيود وفاجأ الشحر بالهجوم ليلاً فهب الناس من مرقدهم مذعورين ولم يتوقع يافع هذا الهجوم من الأمير وقد كان بالأمس يجالسهم ويسامرهم ويبدي لهم من الود والرضا شيئاً كثيراً، ولكن السياسة تعمل كل شيء في سبيل الوصول إلى الغاية. احتل الأمير عمر بن جعفر الشحر وسار بقومه إلى داخل حضرموت، وأخذ يصارع يافع تارة بالشدة وأخرى باللين حتى قوي مركزه وأتسع نفوذه، ولقد انتحل الزيدية ودعا إليها، ولكنه باء بالفشل والخذلان، فقد قاومه رجال الدين من العلويين وغيرهم واستاؤوا منه ونفروا نفوراً شديداً.

أما السلطان عيسى بن بدر الكثيري فقد هرب إلى عينات حين بلغه قدوم الزيود تحت قيادة الأمير عمر بن جعفر والتجأ إلى الشيخ أبي بكر ابن سالم، ولكن الأمير عمر سار إلى عينات وألقى القبض عليه وأرسله إلى الإمام.

ذعر الحضارم وهم شافعيون من انتشار مبادئ الزيدية بين كثير من الجهلة، وقام رجال الدين يقاومون تيار الزيدية ولكنهم باؤوا بالفشل فالسلطان عمر زيدي ومتحمس للزيدية والناس على دين ملوكهم، ولعل تحمس السلطان عمر بن جعفر للزيدية لغاية في نفسه فالظروف دفعته إلى ذلك لتقوية سلطته وتوطيد سلطانه فهو على مبدأ النظرية المعروفة (الغاية تبرر الواسطة).

استنجاد آل الشيخ أبي بكر بيافع

ولقد رأى آل الشيخ أبي بكر بن سالم أن يستنجدوا بيافع للقضاء على الزيدية بحضرموت، فأرسل أحد كبارهم وهو السيد علي بن أحمد بن سالم كتباً إلى شيوخ يافع يدعوهم فيها لغزو حضرموت للقضاء على الزيدية ولإنقاذ يافع من اضطهادات السلطان عمر بن جعفر لهم وتنكيله بهم. وبما أن لآل الشيخ أبي بكر سلطة روحية على يافع عهدئذ فقد لبوا دعوتهم واستجابوا لندائهم.

اجتمع معظم قبائل يافع في المحجبة واختاروا جماعة منهم وعلى رأسهم السلطان عمر بن صالح بن هرهرة والسلطان قحطان بن معوضة العفيفي. وفي يوم الاثنين أول ذي القعدة سنة ١١١٧هـ [١٧٠٦/٢/١٤م] سار هؤلاء إلى عنتر وباتوا، ومنها ساروا إلى سوق الثلاثاء وباتوا في ذيصُراء ومنها إلى جربة غالب، وكانوا في كل بلدة يمرون بها يدعون يافع لإنقاذ قومهم بحضرموت من بطش السلطان عمر بن جعفر، ولقد اجتمع منهم ستمائة مقاتل، وذهبوا إلى البيضاء في طريقهم إلى حضرموت ومنها إلى نصاب، وهناك أنزلهم السلطان صالح بن منصر العولقي على الرَّحب والسعة، ولقد نصحهم السلطان بالعدول عن السفر إلى حضرموت والعودة إلى بلادهم لقلة عددهم وكثرة أنصار السلطان عمر بن جعفر فلم يرضخوا لنصحه.

وفي يوم ١١ذي الحجة سنة ١١١٧هـ [١٧٠٦/٣/٢٦م]دخلوا مخترقين وادي المشاجر، وعندما وصلوا إلى الضليعة[1] ارسلوا الشيخ حسين بن مطهر العمودي وأخيه محمد بن مطهر فجاءا ومعهما ثلاثمائة من أتباعه ومائة حمل من المؤن، واتفق الفريقان على أنهم بعد أن ينتهوا من القضاء على السلطان عمر بن جعفر الكثيري ترد

[1] - وردت في الأصل " الظليق" وهو خطأ.

لآل العمودي جميع المزايا والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها سابقاً في دوعن وملحقاتها، وعندها وصل إلى عقبة الجحى من آل العمودي من قبائل الحالكة وآل باهبري وغيرهم نحو ألف مقاتل.

موقعة بحران

بلغت الأنباء إلى السلطان عمر بن جعفر الكثيري وكان يومئذ بمدينة الشحر، علم السلطان عمر بوصول يافع وتكتلهم مع العمودي وقومه فهرع إلى سَيْئُون وحشد أربعة آلاف مقاتل من الزيود وقبائل الكثيري وسار بهم إلى بحران لمنع زحف يافع ومن معهم من قبائل العمودي.

وقد أرسل السلطان عمر بن صالح بن هرهرة كتاباً إلى السلطان عمر بن جعفر أخبره فيه أنه ويافع لم يأتوا للقضاء على سلطته وليس لهم أي غرض في بسط نفوذهم وتقوية مركزهم بحضرموت، وإنّما جاءوا ليقضوا على الزيود وعلى مذهب الزيدية، حتى إذا انتهوا من ذلك عادوا إلى بلادهم يافع، فرد عليه السلطان عمر بن جعفر بكتاب قائلاً إنه لا يسمح ليافع ولا لغيرهم بالتدخل في شؤون حضرموت، وقال مهدداً أنه أتى إلى بحران بقوم من بكيل وحاشد وآل كثير وغيرهم للقضاء على يافع ومن لحق بهم من قبائل العمودي وتحدى السلطان عمر بن جعفر وتهكم قائلاً : "...فإن كنت عمر بن صالح كما ذكرت ....وركبت على حصانك الأبيض وفعلت المظلة على رأسك ...ابتلعتها نسوان يافع وبرزت لنا ولكن بايبان الفعال بيننا ومنا ومنكم...".

ورد عليه السلطان عمر بن صالح قائلاً :"...وإن شاء الله واصلين غداً الخميس والشمس في كبد السماء وأنا عمر بن صالح بن هرهرة في مائة فارس وأما قولكم إني أظهر المظلة وأركب على حصاني الأبيض فالمظلة إن شاء الله ترونها على رأسي في قاع بحران رأي العين وأما الحصان فلا لي منكم نديد وأنا بادن لكم في بندقي في قاع بحران ".

وبحران أرض مسطحة ليس بها تلال ولا وهاد ولا صخور ولا شجر وتقع على مقربة من سدبة. وفي أطرافها الشمالية قسَّم السلطان عمر بن صالح بن هرهرة يافع إلى ثلاث فرق: الأولى من الموسطة ولَبْعُوس وعليها بوبك بن صالح، والثانية من الناخبي واليزيدي وعليها صالح بن عبدالله وحسين بن صالح ويحيى بن عمر، والثالثة من الضُّبَي ويهر والعناق والحدي وعليها بوبك بن حسين بن صالح وعمر بن عبدالله وصالح بن بوبك، وكان عدد المقاتلين في هذه الفرق الاربع لا يقل عن ستمائة. أما العمودي فقد كون من قومه فرقة بلغ عدد أفرادها نحو ألف ومائتي مقاتل، ولقد وضعت هذه الفرق كلها في أماكن غير متباعدة ليباغتوا الأعداء بوابل من الرصاص ويضعوهم بين فكي الكماشة فلا يجدون منفذاً للفرار.

وفي فجر يوم ١٠ محرم سنة ١١١٨[٢٤/٤/١٧٠٦م] بدأت المعركة بين الفريقين وكانت عنيفة جداً استعملت فيها الأسلحة النارية والخناجر والسيوف، وقبيل غروب الشمس انسحبت فلول قوم السلطان عمر بن جعفر تاركة خلفها عدداً كبيراً من القتلى والجرحى وكميات كثيرة من المؤن والذخائر.

زحف يافع وأنصارهم إلى شبام فاستقبلتهم جموع كثيرة من الشعب بحفاوة بالغة وابتهاج عظيم، وجاء الشيخ أبوبكر بن سالم من عينات بالأعلام والطبول، وشكر يافع على ما قاموا به من تضحيات عظيمة للقضاء على الزيود وعلى اتباع الزيدية، وطلب

إليهم ألا يمسُّوا السلطان عمر ابن جعفر الكثيري بأي أذى وأن يتركوه حراً كريماً، ولقد قضت هذه المعركة الفاصلة على نشاط الزيدية حتى اختفت آثارها في حضرموت. ولما استقرت الأمور وهدأ كل شيء عاد يافع الذين جاءوا في هذه الحملة إلى ديارهم ما عدا خمسين منهم فقد فضلوا البقاء والإقامة بحضرموت.

الصراع السياسي بين يافع وآل كثير

بعد معركة بحران وبعد أن قضي على الزيود وعلى الزيدية بدأت سلطة يافع تنمو ويتسع نطاقها. ولما قام السلطان جعفر بن عمر بن جعفر الكثيري بالأمر نافسه على الحكم الأمير جعفر بن عيسى بن بدر الكثيري، واشتد الخلاف بينهما، وكان الأمير جعفر غير حكيم في تصرفاته ضد يافع فقد استعمل القسوة والشدة واعتدى على أموال يافع في شبام، ولقد انتهز السلطان جعفر بن عمر هذه الفرصة فأغرى بعض عشائر آل كثير في ذي أصبح سنة ١١٤٥ هـ[١٧٣٢م] للتحالف مع يافع ضد منافسه الأمير جعفر بن عيسى، وسار إلى بلاد نهد وأتى بقوم من نهد والجعدة ليضرب بهم الأمير جعفر.

تقابل الفريقان بمكان يقال له الغطيل وكانت معركة عنيفة انتهت بانهزام الأمير جعفر بن عيسى وارتداده إلى شبام، ولم يقم بها سوى ليلة واحدة، ثم غادرها إلى العجلانية وظل بها إلى أن وافته المنية. وبموته انكمشت الدولة الكثيرية وتألق نجم يافع في حضرموت واتسع نفوذهم اتساعاً ما كانوا يحلمون به من قبل، فقد آل أمر المكلا إلى بني ناخب، وأصبح أمر غيل باوزير للَبْعُوس، وريدة المعارة لكلد، وغيل بن يمين

للشنافير، وتريم للَبْعُوس، وسَيْئُون للضبي، وجفل للرباكي، وتريس وحورة وشبام للموسطة، ومريمة لبني بكر، ولحروم لعبدالله بن عوض القعيطي، وسدبه للجهوري، والهجرين لآل يزيد، والقزة للبطاطي.

محاولة آل الكثير استرداد نفوذهم

جاء في كتاب ابن حميد: إن جعفر بن علي بن جعفر الكثيري أتى من الهند إلى حضرموت بمال كثير وذهب إلى هينن وحشد عدداً كبيراً من القبائل وزودهم بالسلاح والمؤن واغراهم بالمال. زحف بهم إلى شبام واحتل معظمها وأخرج كثيراً من يافع منها. ثم سار إلى سَيْئُون ودخلها سنة ١٢٢١هـ [١٧٠٩م]واحتل الجانب الشرقي منها ولكن الحرب بينه وبين يافع استمرت سنة كاملة، وأرسل جزءاً من قومه إلى تريم سنة ١٢٢٢هـ[١٧١٠م] واستولى على بعض أحيائها وعاد إلى شبام ومات بها، وفي رواية أنه قُتل وأُخفي نبأ مقتله في شبام ودُفن بتريم، وعندما علم اتباعه بوفاته انسحبوا من سَيْئُون وتريم، وبذلك عادت السلطة إلى يافع في سَيْئُون وتريم، كما أخذ نفوذهم يقوى في شبام.

ولما وصل الخبر إلى عمر بن جعفر وكان بالهند بما حدث لأبيه سافر إلى حضرموت ونزل عند أخواله آل علي جابر في خشامر، وكان معه أربعون صندوقاً مليئة بالحديد ظنها الناس ذهباً، وتوسط آل علي جابر بينه وبين [illegible] في شبام على أن لا يطالب بثأر أبيه مقابل ترشيحه لمنصب أبيه فيحكم نُصف شبام. وعلى هذا الأساس تمت الاتفاقية وانتقل عمر بن جعفر إلى شبام. ولم يكن عمر بن جعفر ذا شخصية قوية وحزم نافذ، فقد قبع في قصره وترك الأمر لبغض حاشيته الذين لا يهمهم شيء سوى جمع المال ولو من طريق غير مشروع لذلك تقلص نفوذه في شبام. وكان في استطاعة

يافع أن يجمعوا كل السلطة في أيديهم وينفردوا بالحكم لو لا اشتداد الخلاف والتنافس فيما بينهم على المناصب الكبرى. ورأى السلطان عمر بن جعفر أن يقوي مركزه ويوطد سلطانه، فأحضر عدداً كبيراً من فخائذ آل كثير، فازدادت التكاليف عليه واشتدت حاجته إلى المال، لذلك لجأ إلى فرض الضرائب الثقيلة، واضطر بعض التجار إلى الاستدانة لدفع الضرائب المطلوبة، كما اضطر البعض للاستعانة بيافع لحراسة متاجرهم التي تعرضت للنهب والسَّلب.

ساءت الحالة في شبام وأقفرت أسواقها من التجار ورجال الأعمال وذهب بعض الشخصيات البارزة من آل الكثير إلى العقاد واستنجدوا بالثري عمر بن جعفر بن عيسى بن بدر الكثيري وتعهدوا له بتسليم أمر شبام إليه. وطمع عمر بن جعفر في حكم شبام وهجم بقوم من آل كثير ومن يافع الضُّبَي على شبام، وعجز السلطان عمر بن جعفر بن علي الكثيري عن الدفاع فسلم المدينة لهم سنة ١٢٣٤هـ[١٨١٩م]. وقام بالأمر عمر بن جعفر ابن عيسى خير قيام وعاد التجار الفارون إلى ديارهم فعاد إلى المدينة نشاطها وحركتها.

ومات السلطان عمر بن جعفر سنة ١٢٤٣هـ[١٨٢٧م]. وقام بالأمر عمه عبدالله ابن جعفر، إذ كان ابنه منصور طفلاً في السنة الخامسة من عمره، وكان عبدالله ضعيفاً خاملاً أخذ يرهق بالضرائب حتى عاد الكساد إلى أسواق شبام واستحكمت الأذزمة المالية حتى اضطر لبيع نصف مدينة شبام ليافع. وهكذا عادت السلطة إلى يافع.

مذبحة المساجد

سافر الأمير منصور بن عمر بن جعفر الكثيري إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وعند عودته إلى شبام عزل عمه الأمير عبدالله بن جعفر وتولى حكم شبام وكانت مطامحه واسعة، وفي الوقت نفسه كان قلبه مليئاً بالحنق على يافع، إذ يرى أنهم اغتصبوا ملك أجداده فأراد أن ينفرد بالسلطة كل الانفراد وألاَّ ينافسه في ذلك إنسان، ولكنه يعتقد كل الاعتقاد أنه لا يستطيع بلوغ تلك الامنية ما دام في حضرموت قوم من يافع، وبعبارة أخرى ما دام في شبام جماعة من اليافعيين لذلك أخذ يترقب الفرص للقضاء عليهم ويتآمر لذلك مع آل كثير، ونجح إلى حد بعيد في إلقاء بذور الشقاق بين رجالات الموسطة في شبام، حتى إذا بلغ التنافس بينهم على الرئاسة أقصى حدوده، وأخذ كل من ناصر جابر النقيب اليافعي وعلي بن عبدالكريم الجهوري اليافعي يكيل الشتائم والسباب والتهم للآخر، دخل بينهما متظاهراً بالصلح فيتصل بالنقيب مظهراً له استعداده لمساعدته ضد خصمه ثم يذهب إلى الجهوري ويتظاهر له بما تظاهر به للنقيب، وأدخل السلطان منصور جماعة من آل كثير سراً إلى شبام. وفي ليلة عيد الفطر سنة ١٢٦٠هـ[١٨٤٤م] وقد خرج معظم يافع من شبام إلى أهاليهم في القَطْن، أمر عبيده أن يكمنوا في المساجد وقت الافطار وكانت يافع محافظة على صلاة المغرب فلما حضروا فتك بهم العبيد وبلغ عدد القتلى منهم خمساً وثلاثين نفساً.

لقد قتل السلطان منصور عشرات من يافع في أقدس الأماكن وأطهر البقاع. قتلهم وهم عزل من السلاح لأنهم كانوا في المسجد يصلون، يا لهول هذا الغدر، ولكن المطامع الجشعة طغت على عقله وجردته من الإيمان فلم يخشَ الله تعالى ولم يَقِمْ

وزناً ليوم الحساب، ومن غرائب الدنيا أن بعض أدعياء الصلاح والتقوى برَّروا فعلة منصور التي فعلها أو الجريمة الشنيعة التي اقترفها، فقد أرسل عبدالله بن عمر بن يحيى باعلوي كتاباً مؤرخاً في ١٠شوال سنة ١٢٦٠هـ إلى السلطان منصور مظهراً له استحسانه لتلك المذبحة.

ولم يكتفِ منصور بذلك فقد أجهز ليلة عيد الحجة سنة ١٢٦٠هـ على حصن من حصون آل الخلاقي يقال له حصن معمر فأحرقه بالبارود فسقط على من فيه من الرجال والنساء والأطفال.

وحاصر مدينة خشامر مقر أخواله آل علي جابر الذين نشأ بينهم، وأنشأ منصور حصوناً (القاهرة وسهالة وغرفة بشير) واستولى عنوة على حصن السعيدية وطرد منها حاميتها من آل عبدالعزيز، وقوى مركز العقاد، وجهز جيشاً من العوامر وآل باجري وآل كثير، وأخذ يضايق فخائذ يافع في مضاجعهم ويقلق راحتهم ويتحرش بهم ويتحين الفرص للتنكيل بهم والقضاء عليهم.

وليس من شك أن مذبحة المساجد أثارت غضب يافع وأثارت الألم في كل من في قلبه مثقال ذرة من الرحمة من غير يافع. وليس من شك أن محاصرة منصور لخشامر وتحصينه العقاد وبناء الحصون وتهديده ليافع. كل ذلك نذير لهم بالقضاء والفناء.

التجاء يافع إلى القعيطي

عندما ساءت حالة يافع وتفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم وبدأت الدولة الكثيرية بالغرف تنهض وتوطد دعائمها، اجتمعت فخائذ يافع بالقطن وتبادلوا الآراء فيما بينهم لاسترداد سلطانهم ودفع ما يحيط بهم من الأخطار والرزايا، ولكن الذخائر كانت قليلة ولا طاقة لهم بنفقات الحرب ضد آل كثير، لذلك قرَّ رأيهم على الالتجاء إلى الثري الكبير الجمعدار عمر بن عوض القعيطي اليافعي المقيم في حيدر أباد الدَّكن، للاستعانة به لتنفيذ خططهم وتحقيق غايتهم على أن يولُّوه شؤونهم بحضرموت.

ولقد تأثر القعيطي بما حل بقومه يافع إلى أقصى حدود التأثر، فأرسل عامر عوض القعيطي بأموال إلى حضرموت واشترى مدينة الحوطة من آل العيدروس، وسُمّيت بعد ذلك حوطة القعيطي، وتسمى الآن (الرّيضة) تحيط بها غابات كثيفة من النخيل ومساحات واسعة من الأراضي الزراعية الخصبة.

ابتاع القعيطي الحوطة لتكون نواة لدولة يافعية بحضرموت، ولما اقترف السلطان منصور ما اقترف من الجرائم الشنيعة ضد يافع، ولما بلغت أنباء مذبحة المساجد ودك حصن معمر بمن فيه من يافع إلى الجمعدار عمر، تألم أشد الألم وتحمس أيّما تحمُّس، فجمع أصحاب الفكر من يافع وشاورهم في الأمر، وقيل أن الشاعر الشعبي سعيد باعطوة أرسل قصيدة للجمعدار عمر يستثير حفيظته ويدفعه لنجدة يافع.

وفي رواية أن الشاعر الشعبي ناصر باعطوة، دخل على الجمعدار عمر في جمع من يافع في مكتبه بحيدر أباد، وكان باعطوة متلثماً بطرف ردائه فقال، الجمعدار : "ماذا دهاك ياعطوان ؟ ". فقال : "لا شيء ياسيدي سوى أنني أَشْتَم رائحة جلود محروقة بالبارود ". ويقصد بذلك دك منصور لحصن معمر بمن فيه من يافع، فتأثر الجمعدار

عمر أشد التأثر وأرسل عَبْدَيه الماس عمر وعنبراً تحت رياسة ابنه محمد وزودهم بأموال طائلة، وعند وصولهم إلى القطن سنة ١٢٦٠هـ اشتروا حصون الكُرُوس من سعيد بن حسين بن علي الحاج، ثم أرسل الجمعدار عمر ابنه الثاني عبدالله في سنة ١٢٦١هـ[١٨٤٥م] ثم ألحقه بعلي وعوض بطلي الحضرمي وبصحبتهما بقية أفراد الأسرة، وتكوّن للقعيطي جيش بلغ تعداده ٦٠٠ جندياً من يافع كما في رواية باعباد.

وفي سنة ١٢٦٤هـ[١٨٤٨م] اشتدت المناوشات بين يافع وآل كثير، واستطاع يافع رفع الحصار عن خشامر بعد معركة عنيفة، واندفع جيش منصور إلى ضواحي شبام بعد سقوط حصون القاهرة وسهالة وغرفة بشير في يد يافع.

وبعد أن استولى يافع على بعض مراكز الشنافر هجموا على سحيل آل مهري في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٦٤هـ ولكنهم فشلوا لقوة دفاع آل كثير، ثم حملوا على أحد الحصون المنيعة على مقربة من السحيل، وكان فيه جماعة من آل كثير وعلى رأسهم ريس بن عبود، وقد أُصيب برصاصة في إحدى عينيه، وبعد مقاومة عنيفة اضطر ريس بن عبود الكثيري لمفاوضة يافع في التسليم على أن يعطوه ورجاله حرية العودة إلى شبام فأجابه يافع إلى ذلك.

وهكذا احتل يافع هذا الحصن المنيع ولكن بعد أن دفعوا الثمن غالياً، فقد كان من بين بين القتلى شخصيات بارزة أمثال : عبدالله بن عبدالحبيب بن قاسم بن علي جابر وصالح عمر بن علي الحاج.

وبسقوط هذا الحصن في يد يافع أصبح سحيل آل مهري مهدداً بالسقوط، وابتاع يافع حصن سعيد بن بدر بن مهري، ثم استمرت غارات يافع على المناطق الكثيرية وكبدوهم خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وهكذا تحول موقف يافع من الدفاع إلى الهجوم.

عبود بن سالم يقود جيشاً

شعر آل كثير بالخطر يدنو إليهم ويحدق بهم وينقصهم من أطرافهم واستطاع أقطابهم وفي مقدمتهم الأمير عبود بن سالم الكثيري أن يوحدوا صفوف قبائلهم ويجمعوا شملهم ويقربوا بين وجهتي نظر آل عبدالله وآل عيسى بن بدر.

لقد حشد عبود بن سالم فخائذ آل كثير ومماليكهم وسار بهم لمقاتلة يافع، وفي ذي أصبح سمعوا صوت الصائح بمغاز القوم فاتجهوا نحوها فعرفهم القوم وكرَّوا عليهم بخيلهم ومطاياهم وقتل أحد العبيد، وكاد القوم يحيطون بالأمير عبود لولا أنه نجا بالهرب إلى شبام.

وقيل أنه اتفق مع السلطان منصور بواسطة آل يماني على أن يعطيهم ناصفة شبام بثمن وعلى أن يقوم بنصف تكاليف الحرب ضد يافع، وعلى منصور النصف الآخر يخصم من ثمن ما أعطاهم، وأن تكون المصروفات وايرادات البلد على يد آل عبدالله والحكم لمنصور ولحاشيته.

وعاد الأمير عبود إلى سَيْئُون بعد أن حصن مدينة شبام والسحيل والعقاد، ومن سَيْئُون ذهب إلى تربة وتريم، وهناك جهز جيشاً من العوامر وآل باجري والشنافر، وسار بهم ليلة الخميس آخر القعدة سنة ١٢٦٤هـ إلى الغرفة في طريقهم إلى شبام، فأضافهم منصب باعباد، وفي ذي أصبح أضافهم حسن بن صالح باعلوي ودعا لهم بالنصر في

صلاة الجمعة، وعلى مقربة من النقر مركز قيادة يافع قسم جيشه ثلاث فرق على كل منها قائد كثيري، ثم هجموا على يافع، وجاء السلطان بجيشه من الشرق، وبلغت المعركة أقصى حدود العنف، وتحت نيران حامية انسحب يافع وأحرق آل كثير أكواخهم بمن فيها من المرضى والجرحى وتحصن جماعة من يافع في مسجد النقر وباتوا فيه فكَّر عليهم آل كثير واخرجوهم منه، وكان فيه من رؤساء يافع عبدالحبيب بن بوبك بن نقيب، واحتفظ يافع بالحصن الذي اشتروه من سعيد بن بدر بن مهري وبالحصن الذي بنوه على مقربة منه على الرغم من حصار آل كثير لهما، وذات ليلة أراد يافع إمدادهم بالذخيرة والغذاء والماء فصدهم آل كثير، وأخيراً هجموا على أحد الحصنين وأسروا حماته وكانوا أربعة من المماليك وساروا بهم إلى شبام بالطبول والأناشيد، ثم أحاط آل كثير بالحصن الآخر وكان فيه تسعة من يافع وحاصروهم ومنعوا عنهم الماء والغذاء فاضطروا للتسليم على الأمان في وجه سالمين بن عبدالله بن طالب، وهكذا استطاع آل كثير رفع الحصار عن شبام بقوة السلاح.

جلاء يافع عن تَرِيْس

كان أمر مدينة تريس في يد النقيب اليافعي ولوقوعها وسط المناطق الكثيرية أصبحت من أخطر الجيوب عليهم ولذلك فكروا في إجلاء يافع عنها واحتلالها، فأخذوا يشددون الحصار عليهم، واستطاع ابوبكر ابن عبدالحبيب النقيب وعبدالله بن صالح بن ناصر الوصول إلى القطن لطلب النجدة من يافع في جمادي الأول سنة ١٢٦٤هـ، وعلم آل كثير أن نجدة قادمة في طريقها إلى تريس فكمنوا لها على مقربة من تريس،

ولحسن الحظ ترك يافع معظم ذخائر النجدة ومؤنها في خشامر عند آل علي جابر خوفاً من وقوعها في يد آل كثير، وعلى مقربة من حصون العوانزة وكان الظلام حالكاً انقض عليهم آل كثير، فانهزم يافع لقلة عددهم ونفاذ ذخيرتهم وتكبدوا خسائر فادحة في الأرواح ونجا بأعجوبة عبدالله ابن صالح ودخل مدينة تريس، أما ابوبكر عبدالحبيب فقد لجأ إلى حصن بئر بوبك وكان فيه عبد لآل النقيب، وفي أواخر شهر جمادي الأول سنة ١٢٦٤هـ حشد آل كثير جنوداً كثيرة من الشنافر والعوامر وجماعة من قبائل القبلة يرأسها الشريف أحمد بن مبارك من أهل بيحان وهجموا على تريس واستولوا على جزء منها، واستمر الهجوم أمام مقاومة عنيفة من يافع وعبيدهم الذين تحصنوا في بعض المنازل، وحاول آل كثير وضع أكياس من البارود تحتها لهدمها بمن فيها من يافع ولكنهم فشلوا، وأخيراً ضربوا نطاقاً من الحصار حولهم ومنعوا عنهم المؤن والذخائر والماء سبعين يوماً، وكاد يافع يموتون جوعاً وعطشاً فسلموا المدينة لسالمين بن عبدالله بن جعفر بن طالب قائد آل كثير على شرط سلامة أرواحهم وعودتهم بأموالهم إلى القطن، وقام سالمين بن عبدالله وعلي بن مبارك بن عانوز بتنفيذ شروط التسليم.

استنجاد يافع بالقعيطي

بعد أن فشل يافع في محاصرة شبام وبعد أن تكبدوا خسائر في الأرواح والأموال استنجدوا بالجمعدار عمر بن عوض القعيطي اليافعي بحيدر أباد الدّكن. وقيل أن وفداً منهم وعلى رأسه حسين بن علي الحاج وحسين بن صالح المصلي ذهبوا إليه وأحرق أحدهم عمامة من الحرير المقصب بين يدي الجمعدار، فثارت حميته وأرسل أمين أمواله محمد بشهر إلى بلاد يافع وجهز ألفي مقاتل وعلى رأسهم صائل بن ناجي وعلي

بن حسين الضباعي والحريبي والبكري ومحمد بن سالم بن الشيخ أبي بكر، وقبل وصولهم اقترح عبدالله بن عمر بن يحيى على السلطان منصور أن يغتنم الفرصة فيهجم على يافع بالقطن قبل أن يصلهم المدد، وأرسل بعض كبار العلويين للفضلي أمير شُقرَة ليمنع اليافعيين من المرور في أرضه فأجابهم إلى ذلك ولكن محمد بشهر رشاه بمبلغ كبير من المال فسمح لهم بالمرور في أقاصي بلاده ليوهم العلويين وآل كثير أنهم إنّما مروا من غير أن يعلم بهم.

وصل يافع إلى المكلا في محرم سنة ١٢٦٥هـ[١٨٤٨م] فاستقبلهم النقيب صلاح الكسادي اليافعي وأكرمهم اكراماً عظيماً وأرسلهم إلى القطن بعد أن أمَدّهم بالمؤن والذخائر.

سقوط العقاد

تقع مدينة العقاد على مقربة من شبام، وموقعها الاستراتيجي هام جداً لشبام ولذلك حصنها آل كثير تحصيناً قوياً حتى أصبحت أهم خطوطهم الدفاعية، وكانت تقيم فيه أسر من آل عيسى بن بدر، ويافع يعلمون كل العلم أنه لا سبيل لاحتلال شبام إلا بعد دك حصون العقاد أو احتلالها، لذا حملوا عليها بمدافعهم الثقيلة وأصلوها ناراً حامية وأحدثوا بها أضراراً جسيمة وقتلوا عدداً كبيراً من حماتها وجرحوا كثيرين، واضطر آل كثير إلى التسليم من غير قيد ولا شرط، ودخل يافع المدينة فرحين بما احرزوه من النصر وكان ذلك في صفر سنة ١٢٦٥هـ، وهكذا تحطم أهم خط دفاعي كان يعتمد عليه السلطان منصور كل الاعتماد. وقيل إنه كان في بعض الدور أولاد عيسى بن

جعفر وبعض الشنافر طلبوا الأمان من يافع على أن يسلموا لهم الدور بما فيها من الذخائر فأجابوهم إلى ذلك، ولكن عندما خرجوا أُلقي عليهم القبض وأرسلوا إلى حوطة القعيطي وكانوا أحد عشر شخصاً.

وظهرت بوادر النشاط في آل كثير في خمور فقد قامت دورياتهم تهدد مواصلات يافع، فسار إليهم جماعة من يافع وقضوا على جيوب المقاومة وأوكار العصابات التي تقع بالقرب من خمور.

معاهدة بين يافع وآل كثير

تقع قرية آل عبدالعزيز في الشمال الغربي لشبام، ويقع سحيل آل مهري على مقربة منها، والبلدتان – ويقيم فيهما آل عبدالعزيز وآل بلظراف الكثيريون – من أهم المراكز الدفاعية لشبام، وكانوا يحملون في قلوبهم الكره للسلطان منصور لجوره وشدته، ولقد اغتنم الأمير عوض ابن عمر القعيطي اليافعي هذه الفرصة فتحالف معهم سنة ١٢٦٥هـ تمهيداً لاحتلال شبام.

محاصرة شبام

والآن وقد سقطت في يد يافع العقاد وخمور وحذية وما جاور هذه البلدان من مساكن آل كثير، أخذ يافع سنة ١٢٦٦هـ[١٨٥٠م] يشددون الحصار على شبام ويقطعون مواصلاتها بنهد والقبلة، ولقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد.

يافع في تَريم

حين انهارت الدولة الكثيرية وزال سلطانها من تريم سنة ١٢٥٠هـ [١٨٣٤م] آل أمر تريم إلى آل لَبْعُوس من يافع، ولقد استطاع الأمير عبدالله عوض غرامة اليافعي بحزمه

وسياسته أن يقوم بالأمر وينشر فيها العدل والأمن ولكن لسوء الحظ لم تستمر هذه الحالة، فقد قام آل عبدالقادر ينافسون آل غرامة في حكم تريم ويعملون في الخفاء لإضعاف قوتهم، واشتد الخلاف بين الأمير عبدالله غرامة وأنصاره من سكان حصن الرناد[1] وبين آل عبدالقادر وأشياعهم سكان النويدرة، وتطور النزاع إلى مناوشات بين الطرفين، وتدخل في الأمر الأمير غالب بن محسن الكثيري، وقيل عبدالله بن محسن وأتصل بآل عبدالقادر لما بينه وبينهم من الصداقة القوية، وبدلاً من أن يصلح ذات البين أعادها خدعة وقام بأكبر قسط في اشعالها بعض العلويين من سكان سَيْئُون وتريم لكراهيتهم وبغضهم لابن غرامة لاعتناقه مبدأ الوهابيين الذين يحرمون البدع والخرافات ويعتبرون التوسل بالأموات شركاً. ولسوء الحظ مات الأمير عبدالله بن غرامة فجأة فخسرت يافع رجلاً سياسياً حازماً عادلاً حراً كريماً، وخلفه ابنه عبدالقوي وكان ضعيف السياسة قصير النظر ساذجاً يحسن النية في كل شيء سريع التأثر بأصحاب السلطة الروحية من العلويين وغيرهم حتى أصبح آلة صماء في يدهم، ونجح أصحاب السلطة الروحية في عقد محالفة عسكرية سنة ١٢٥٠هـ بين آل عبدالله الكثيري وبين آل عبدالقادر أعداء آل غرامة، وجاء آل عبدالله بقوات إلى تريم يوم ٥ رمضان سنة ١٢٦٢هـ [١٨٤٦/٨/٢٧م] بحجة مساعدة آل عبدالقادر، ونشط جماعة من آل كثير ومن أصحاب السلطة الروحية في بث الخوف في قلوب آل غرامة وأنصارهم، وأخيراً أغروا الأمير عبدالقوي غرامة على التنازل عن حصته من تريم للأمير

---

[1] - وردت في الأصل "الزناد" وهو خطأ.

غالب بن محسن الكثيري مقابل أربعة الآف ريال، وأجابهم عبدالقوي إلى طلبهم وهاجر هو وحاشيته وأنصاره إلى القوز مساكن آل مرساف من آل تميم سنة ١٢٦٢هـ وطالب غالب بن محسن الكثيري ما تعهد به له من المال ولكن من غير جدوى، وهكذا انخدع عبدالقوي نتيجة سياسته الخرقاء ودبرت له المكيدة فوقع في حبالها وحاول استرداد حقوقه السياسية ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح، وليس من شك أن سبب ضياع سلطان يافع على تريم إنّما هو التنافس فيما بينهم على السلطة والتنازع على الحكم.

يافع في سَيْئُون

عاصرت سَيْئُون إمارات مختلفة المبادئ والأوضاع حتى إذا جاءت سنة ١٢٤٠هـ [١٨٢٤م] بدأت سلطة يافع تظهر ويتسع نطاق نفوذهم السياسي. وفي سنة ١٢٦٤هـ أصبح الأمر كله في يدهم ولم يبقَ لآل كثير سوى أسماء جوفاء لا تحمل معنى، ولكن سرعان ما أخذت سلطة يافع تتصدع وتنهار لتنافسهم على الزعامة والرياسة، ففريق منهم يريد أن يكون أمر سَيْئُون لعلي بن حسين بن الشيخ علي، وفريق آخر يريد سالم حسين بوطلعة الشرفي واشتد الخلاف والتنافر والشقاق، وأخيراً ثارت بينهم المناوشات وتبودل فيها اطلاق النار من الجانبين.

واغتنم بعض الشخصيات في سَيْئُون ضعف يافع وتخاذلهم وتنافسهم على الرئاسة فأخذوا يعملون سراً لإقصائهم عن سَيْئُون واسترداد سلطة آل كثير، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد، فقد انسحبت من ديارهم فراراً من الضغط والجور ما عدا آل الشيخ علي فقد فضلوا البقاء لمصاهرتهم لآل طالب.

غزو سَيْئُون

ليس من شك أن سقوط سَيْئُون في أيدي آل كثير ترك في نفوس يافع أثراً سيئاً أليماً، وليس من شك أن أهم آمالهم استرداد سلطتهم عليها، ولقد ظهر نشاطهم في خشامر حيث تركزت قواتهم بشكل واضح وتحمسوا لاسترداد ما اغتصب منهم من البلدان، وقد استردوا العقاد وخمور وحذية وما جاورها من الديار وحاصروا مدينة شبام حصاراً شديداً.

وفي ليلة الاثنين ٢٥ من ربيع الأول سنة ١٢٦٥هـ [١٨٤٩/٢/١٢م]سار من يافع ثمانمائة مقاتل لغزو سَيْئُون، وقابلهم على مقربة من سَيْئُون عبدٌ من عبيد عبدالحبيب بن صالح بن محمد سعيد الجحوشي وكان خبيراً بشوارع سَيْئُون وحصونها ومنافذها فرسم لهم خطة الهجوم، ولما علم آل كثير بذلك قام الأمير عبود بن سالم الكثيري يحشد قبائل آل كثير والعوامر وآل باجري للدفاع عن سَيْئُون وإقصاء يافع عنها، وخرجت القوات الكثيرية من سَيْئُون بقيادة الأمير عبدالله بن صالح بن محمد الكثيري إلى مسيال سر حيث لا طريق ليافع إلا منه وكان البرد شديداً، وقبيل مطلع الفجر انصرفوا إلى القرين من أعمال تريس ولكن القوات اليافعية مرت بعد ذلك في المسيال ووصلوا إلى سَيْئُون والناس يؤدون صلاة الصبح، وهناك دخل فريق منهم الحوطة واستولوا عليها، وفريق دخل الوسطة على مقربة من حصن الدويل، وفريق ثالث دخل السحيل واحتله، ودخل فريق آخر دار خلع أحمد والدجن ومسجد جوهر.

وفي اليوم الثاني وصلت إلى سَيْئُون قوات كثيرة من آل عبدات وآل فلهوم والعوانزة لنجدة دولة آل عبدالله، واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين أياماً وهجم أربعون من عبيد آل كثير وعلى رأسهم فرج غالب، على مسجد جوهر، وكان فيه سبعة من عبيد يافع هرب ثلاثة منهم وأحتمى أربعة بالمأذنة واحتل المهاجمون المسجد وأقبل جماعة من يافع لاسترداد المسجد ولكنهم فشلوا.

وفي الليل تسلل العبيد من المسجد واحداً بعد الآخر خوفاً من هجوم يافع عليهم. وكادت ذخائر يافع تنفد فأرسلوا إلى القطن يطلبون المدد ولكن من غير جدوى لأن آل كثير وأعوانهم من القبائل محاصرون سَيْئُون من جميع الجهات، وحاولوا فتح ثغرة فهجم جماعة منهم على القرن واحتلوا جانباً منه، ولكن الأمير عبدالله بن أحمد وعبيده قاوموهم بكل قوة.

واستطاع أربعمائة مقاتل من يافع التسلل من سَيْئُون في طريقهم إلى القطن لجلب مؤن وذخائر، ومروا ليلة الاثنين **١٢** جمادي الأول سنة **١٢٦٥**هـ على مقربة من مخافر آل كثير فتركوهم يمرون حتى لم يبق منهم سوى ثمانين فأطلقوا عليهم النار وجاء إلى جبل المحترقة آل الفاس وآل العاس والعوانزة وقتلوا منهم ثلاثين وأسروا أحد عشر نفراً جاءوا بهم إلى تريس ثم أرسلوهم إلى تريم وجرح كثيرون من الفريقين، وقد تركت هذه الهزيمة التي لحقت بيافع أثراً سيئاً في نفسية قومهم بسَيْئُون.

وأخيراً اجتمع محسن بن علوي وآل الضباعي بدار علي بن جعفر السقاف بيثمة للمفاوضة في الصلح بين الفريقين، ولكن آل الضباعي وهم من لَبْعُوس لم يحضروا في الميعاد المحدد لأنهم علموا أن عدداً كبيراً قادم ليافع من الأمير محمد بن عمر القعيطي، ولما تأخر وصول المدد وكادت الذخيرة تنفد اجتمع زعماء الفريقين في دار علي بن جعفر السقاف وكان الأمير علي بن أحمد الكثيري وجماعة من آل باجري

نائبين عن آل كثير، وكان علي بن حسين الضباعي اليافعي نائباً عن يافع، واتفق الفريقان على أن ينسحب يافع (الغرباء) وهم الذين أتى بهم محمد بشهر من بلاد يافع، ولكن الضباعي عاد إلى محسن بن علوي وطلب إليه أن يكون الصلح ليافع جميعهم التلد والغرباء، فرفع محسن الأمر إلى الأمير علي بن أحمد واجتمع الطرفان في دار عبدالله بن سالم الحبشي ثم في دار سالم عبود بحرق وحضر عن يافع (التلد) عبدالحبيب بن بوبك بن نقيب وصالح بن سالم بن يحيى عمر وسعيد عوض المرفدي، وبعد مفاوضات انسحب يافع (الغرباء) من سَيْئُون ليلة الجمعة ٤من جمادي الآخرة سنة ١٢٦٥هـ تحت حراسة جنود من آل كثير.

وصعب البقاء على يافع (التلد) وكان عددهم لا يتجاوز ١٥٠ فانسحبوا من ديارهم واجتمعوا بالسحيل، واقترح عليهم عبدالحبيب بن بوبك أن يخرجوا أفراداً وجماعات، واندس عشرون منهم في يافع (الغرباء) أثناء انسحاب هؤلاء ولجأ جماعة منهم إلى حصن الحد ليدافعوا إلى آخر رمق في حياتهم، واستمر عبدالحبيب يحثهم على الانسحاب فلم يجيبوه فتركهم وشأنهم، وخرج هو وولداه حسين وسالم وعمر بن سالم بن حسين بن يحيى عمر وولده ثم لحقهم جابر بن صالح بن ناصر بن نقيب وأثنان من العبيد فقابلهم جماعة مسلحة من العوامر بالجبل وقتلوا جابر ابن صالح وعبداً وأسروا العبد الثاني ودخلوا به إلى سَيْئُون، واستمر البقية من يافع (التلد) في حصن الحد يدافعون بأقصى ما لديهم من بطولة وقوة، وأشار عبدالله بن عمر بن يحيى باعلوي بحَرْق الحصن بمن فيه من يافع ولكن آل كثير رفضوا، ولما نفذت ذخائرهم

وكادوا يموتون جوعاً وعطشاً عرض قائد الحامية وهو البطل صالح علي بوبك بن علي الحاج على الأمير علي بن أحمد الكثيري التسليم على أن يكون لهم حق الإقامة في سَيْئُون أو العودة إلى القطن. وأخيراً اتفق الفريقان على أن يبقى جماعة من يافع رهائن لدى السلطان عبدالله بن حسن الكثيري بتريم، وخرج الرهائن من سَيْئُون وفيهم سعيد عوض المرفدي وسالم سعيد المصلي وعبدالحبيب بن أحمد صالح وصالح بن سالم بن حسين وعبدالله بن محسن بن غالب بن يحيى عمر وغيرهم في يوم السبت ١٣جمادي الآخرة سنة ١٢٦٥هـ وباتوا في منزل آب عبدالغفار باكثير في السحيل، وانسحب الباقون صباح يوم الأحد ما عدا عَبِيْد آل غرامة فقد أُسروا، وأرادت الدولة الكثيرية أن تعتقل آل محمد سعيد الجحوشي وتصادر أموالهم ولكن المصلحين توسطوا في الأمر على أن تجليهم الدولة الكثيرية من سَيْئُون ويأخذوا معهم ما يستطيعون حمله من ممتلكاتهم، وهكذا جلا يافع عن سَيْئُون بعد أن حكموها نحو سبعين يوماً، ولم يبق بها أحد منهم سوى علي بن أحمد هرهرة.

اطلاق سراح بعض يافع

كان لقبول يافع (الغرباء) الانسحاب من سَيْئُون ليلة الجمعة ٤ جمادي الأول سنة ١٢٦٥هـ وقع حسن في نفوس آل كثير ولذلك أطلق السلطان عبدالله بن محسن الكثيري سراح من أسر منهم في وقعة المحترقة وأبقى في الأسر يافع (التلد) لأنهم رفضوا الانسحاب.

وأمر السلطان بقتل عَبِيْد آل غرامة الذين كانوا في حصن الحد وعَبِيْد القعيطي وآل عبدالهادي البالغ عددهم واحداً وعشرين نفساً.

ويقول ابن حميد إن أربعة من يافع تمكنوا من الفرار من السجن بعد ان حطموا القيود، وهم : بوبك بن عبدالحبيب، سلك طريق يثمة ولكن بعض آل كثير أدركوه في وادي شحوح وقتلوه وجزوا رأسه ودخلوا به إلى سَيْئُون. والثاني غالب بن سعيد بن عبدالهادي. والثالث من بني أرض، وقد نجاهما الله من الأسر والموت، والرابع وهو الرباكي الذي أُلقي عليه القبض وقتل.

أما كيف استطاعوا تحطيم قيودهم، فقد قيل أن بعض محبيهم أدخل بضعة مبارد إلى السجن داخل اقراص من الخبز قطعوا بها قيودهم وقتلوا الحارسين وهما من عبيد آل كثير وخرجوا من السجن ونجوا إلاَّ واحداً أدركه الناس في يثمة وأحضروه إلى الأمير عبود بن سالم الكثيري الذي أُعجب بصراحته وبسالته حين سأله عن قاتلي الحارسين، فقد حقن الأمير دمه حين اعترف بأنه واحد منهم.

نشاط يافع

وعلم اليافعيون بزحف الجيش الكثيري وتكتله في مرير لمحاصرة الشحر، فأرسلوا إلى أمير المكلا النقيب صلاح بن محمد الكسادي وأمير الشحر علي بن ناجي بن بريك ليقاوما كل غزو ويثبتا في مراكزهما مهما كلفهما ذلك من تضحيات، وأمدوهما بأربعمائة مقاتل من يافع تحت قيادة سعيد بن حسين بن علي الحاج اليافعي، وانضم إليهم جماعة من آل تميم وعلى رأسهم محمد بن سعيد بن شملان.

محاولة يافع احتلال شِبَام

لم يضعف نشاط يافع حول احتلال شبام، ولم يدب اليأس إلى قلوبهم حين فشلوا في الاستيلاء عليها، فقد استمرت أنظارهم متجهة إليها وآمالهم منصبة نحوها لجعلها قاعدة لدولتهم الجديدة ومركزاً لقيادتهم وأعمالهم وهي بلا شك أحسن موقع لتوجيه الضربات لآل كثير.

وتمهيداً لذلك عقد القعيطي معاهدة صداقة بينه وبين آل هضيل سكان الظاهرة التي تقع على مقربة من شبام وذلك يوم ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٧٠هـ [١٨٥٣/١٢/١٤م]، وآل هضيل فخذ من آل كثير عاهدوا القعيطي على أن يبقوا على الحياد ويسمحوا ليافع بالمرور لمحاصرة شبام والهجوم عليها لاحتلالها، وقبل ذلك أي في شعبان سنة ١٢٧٠هـ عقد القعيطي مع ابن يماني التميمي معاهدة عسكرية.

أرسل القعيطي حملة من يافع وهجموا على شبام ودخلوها من الشمال واحتلوا الشويرع، وهناك دارت بين يافع وآل كثير معارك بالبنادق والسلاح الأبيض، ولما علم العوامر وآل باجري نبأ تلك المعارك جاءوا لنجدة السلطان منصور بن عمر الكثيري، واستطاع السلطان منصور أن يؤثر في آل هضيل حلفاء يافع ويشتري ضمائرهم بالمال، فقد نقضوا العهد وانضموا إلى منصور وحاربوا وطعنوا يافع من الوراء، واستمر القتال والمناوشات بين الفريقين نحو ثمانية شهور، وتوقفت في خلالها حركة التجارة في شبام ودبت الفوضى فيها وانتشر التذمر بين التجار الأمر الذي دفع بعضهم لمساعدة منصور بالمال لتحريض آل هضيل على تمزيق المحالفة بينهم وبين يافع، ولم يكن ذلك حباً من الشباميين في آل كثير أو كرهاً ليافع، ولكن توقف مصالحهم

التجارية وانقطاع مواصلاتهم بالخارج وتعرض أموالهم وممتلكاتهم للخسائر والاضرار كل ذلك دفع بعضهم لمساعدة منصور حين رأوا رجحان كفته.

موقعة المكلا البحرية

وفي ليلة حالكة الظلام وصل إسحق بن يحيى[1] بقواته في بضع سفن إلى ميناء المكلا ولم يَدُر بخلده أن النقيب الكسادي على أتم استعداد لدحرهم وإصلائهم ناراً حامية، فقد كان النقيب يقظاً حازماً باسلاً، فعندما علم بوصول سفن الأعداء أصدر أمره إلى حماة المدينة ليدحروهم وينزلوا بهم شر هزيمة، وانطلق الحماة من يافع والمماليك في عشرات القوارب وأحاطوا بالأعداء فبهت إسحق وقومه وانتشر الذعر بينهم وكانت بعض حصون المكلا تطلق عليهم قذائفها في شدة وعنف، فانسحب المهاجمون ولاذوا بالفرار واتجهوا نحو الشحر للهجوم عليها ولكنهم لم يستطيعوا أن يرسوا بمراكبهم في الميناء لضحولته ولهيجان البحر وهبوب العواصف وأخذت مدافعهم تطلق قذائفها على المدينة ولم يفلحوا في إصابة الأهداف لبعد المسافة، ولم تقع خسائر في الارواح والأموال، وأخيراً بعد أن نفذت أو كادت تنفذ ذخائر إسحق بن يحيى أبحر بسفنه مخذولاً مهزوماً، وهكذا فشل إسحق في أعظم محاولة للقضاء على يافع، ولم يكن هذا الفشل لضعف تفكيره وقصر نظره، فهو على جانب كبير من الذكاء والنشاط وقوة الشخصية وبُعد النظر ولكنه سيء الحظ، ويظهر أنه لم يحسن إدارته العسكرية وإن كان ذكياً نبيهاً نشيطاً فصيح اللسان قوي الحجة ولكنه لم يكن

[1] - راجع صفحة ١٦٠" في جنوب الجزيرة العربية " للمؤلف.

قائداً حربياً، وكان يمكن أن يصيب شيئاً من الظفر والنصر لو لم يظهر يافع من الشجاعة والبسالة الشيء الكثير ولو لم يستميتوا في الدفاع عن كل شبر من أراضيهم بكل قوة وعنف.

أما الأمير عبود بن سالم الكثيري القابع بجيشه في مرير فقد تلقى إنذاراً شديد اللهجة من أمير المكلا النقيب صلاح الكسادي اليافعي، وخاف بعض رجاله عاقبة الإنذار فانسحبوا، ومن هؤلاء : محسن بن علوي السقاف السافي وعلوي بن سقاف بن محمد الجفري وأحمد بن زيد بن سميط وأبوبكر بن محمد بن أحمد بن زيد الحبشي وشيخ بن عبدالله بن زين الحبشي وعبدالرحمن بن علوي السقاف وعبدالله بن حسين بن شهاب وعلي بن حسن بن حسين الحداد وعبدالقادر بن حسن بن صالح البحر ومحمد بن محمد بن هاشم الحبشي.

ولم يرضخ عبود بن سالم لإنذار الكسادي فثبت بجيشه في مرير حتى إذا أرسل الكسادي مدداً من يافع للأمير علي بن ناجي بريك والي الشحر ثارت الحرب بين الفريقين، وكانت معركة عنيفة أبلى فيها يافع بلاء حسناً، وانهزم جيش عبود على الرغم من كثرة عدده وعاد إلى سَيْئُون.

مناوشات

في سنة ١٢٦٩هـ [١٨٥٢م] هجم يافع وآل تميم على حصون الوهد وابن صبرة الواقعة شرقي المسيلة واحتلوها وغنموا أسلحة من عَبِيْد آل عبدالله وأسروا أربعة منهم فتحمس آل كثير وأرسلوا قواتهم على ثلاث دفعات، إحداها تحت قيادة عبود بن سالم، والثانية برياسة علي بن أحمد الكثيري، والثالثة بقيادة عبدالله بن صالح

الكثيري، وهجموا على حصون آل تميم الواقعة بين حصن ابن فلوقة وحصن بلغيث واحتلوها عنوة وأسروا ثمانية من حماتها.

وجاء جماعة من آل تميم ومعهم مائتا مقاتل من المناهيل ورابطوا شرقي تريم وقطعوا المواصلات وبنوا حصوناً على مقربة من مضلعة ابن سهل ورابطوا فيها، ولما علم آل كثير ساروا إليهم بقوم من العوامر وآل باجري، واشتبك الفريقان في معركة عنيفة انتهت باندحار آل تميم.

السلطان غالب بن محسن الكثيري

في صفر سنة ١٢٧٢هـ [١٨٥٣م] جاء السلطان غالب بن محسن من حيدر آباد إلى سَيْئُون، وهو من أعظم الشخصيات الذين بذلوا كل مرتخص وثمين في تكوين الدولة الكثيرية الفتية، وقام بدور كبير في الصراع الذي كان قائماً بين يافع وآل كثير، وكانت حيدر آباد مهجره الوحيد وفيها ساعده الحظ فأثرى وسطع نجمه وعلا اسمه وأصبح من الرجال البارزين، على أن مركزه كان دون مركز الجمعدار عمر بن عوض القعيطي، ولذا قام التنافس بين هذين البطلين، وتطور هذا التنافس إلى لون آخر من التعصب القومي حين اشتد الصراع في حضرموت بين يافع وآل كثير، فقد نشط غالب بن محسن في نشر الدعاية ضد القعيطي وأخذ يهدده بالانتقام من أولاده ومن يافع بحضرموت، ولكن القعيطي كان أقوى منه نفوذاً وجاهاً وأكثر منه مالاً ودهاءً، فلم تؤثر فيه مساعي غالب ولم تلحق به أدنى ضرر، ولما شعر بالفشل والخذلان قفل راجعاً

إلى حضرموت حاملاً معه أموالاً كثيرة، وقيل أن ملك حيدر أباد خشي قيام الفتنة بين العرب عندما اشتد النزاع والصراع بين البطلين فاصدر أمره بترحيل غالب عن ولايته.

القعيطي يقود جيشاً

جهز الأمير عوض بن عمر القعيطي اليافعي ٦٠٠ مقاتل يافعي وأمدهم بكل ما يحتاجون إليه من المؤن والذخائر وتولي بنفسه قيادتهم وسار بهم نحو شبام في يوم ٢٧جمادي الأول سنة ١٢٧٤هـ [١٨٥٨/١/١٣م] ولما وصلوا الموزع (الخزان) بدأت المناوشات بينهم وبين آل كثير، وكان حصن السعيدية المنيع يقف حائلاً دون هجوم يافع على شبام، فقد حصنه السلطان منصور بن عمر الكثيري بأربعين مقاتل من عبيده وجعل عليهم مبارك العريان بن عبدالعزيز الكثيري، ويقول باعباد إن مبارك العريان حين شعر بقوة يافع المعنوية واستماتتهم في الهجوم فكر في تسليم الحصن مقابل مبلغ من المال، وفي ليلة حالكة الظلام انسل من الحصن وذهب رأساً إلى مركز قيادة يافع وقابل الأمير عوض وأتفق معه على أن يمهد له الاستيلاء على الحصن مقابل ٥٠٠ ريال، وعاد مبارك إلى الحصن وحين استولى النوم على جنوده صعد إلى السطح وأشعل ناراً فتقدم ثلاثون من يافع ونقبوا جدار الحصن ودخلوه فبهت الحماة وقامت معركة عنيفة بالسلاح الأبيض واحتل يافع الحصن وأسروا عدداً من رجاله، وهكذا سقط في يد يافع حصن منيع. أما خطوط دفاع آل كثير في بزرق والركز فقد دكتها مدافع القعيطي الثقيلة وغادروها المدافعون بعد أن اشتبكوا مع يافع بالسلاح الأبيض تاركين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى والجرحى.

الصلح بين الفريقين

لا شك أن سقوط السعيدية ودك خطوط الدفاع جعل مدينة شبام تحت رحمة يافع، ولقد بذل السلطان منصور كل ما في وسعه لجلب الإمدادات ولكن من غير جدوى فقد خذله قومه آل كثير، ويقول السيد ابن عبيد الله السقاف إن السلطان منصور انسل في أثناء حصار يافع لشبام وذهب إلى سَيْئُون وكان بها السلطان غالب بن محسن الكثيري وشكا حاله إليه وقال له "اعطُوني بلاداً من بلدانكم وأسلِّم لكم شبام"، فقال له عبود بن سالم الكثيري:نعطيك مريمة أو تريس، فاغتاظ السلطان منصور وقال: أتعطُوني الأتان من بعد الفرس، لأحفرن لكم حفرة لا تنجون منها أبداً. وعاد إلى شبام وشرع يفاوض الأمير القعيطي بواسطة آل سميط، وأخيراً باع له النصف الغربي لشبام ودخلت جموع يافع شبام يوم الخميس ٢٠ جمادي الآخرة سنة ١٢٧٤هـ، وفي يوم الجمعة من الشهر المذكور جاء السلطان عوض بن عمر القعيطي وتسلم نصف شبام.

جلاء يافع عن غيل بن يمين

عندما قوي مركز الشناظير، وهم فخذ من يافع وتوطدت دعائم سلطتهم في غيل بن يمين وخاف الحموم على سلطتهم فأخذوا يفكرون في زحزحة يافع من غيل بن يمين، وانتهز آل كثير الفرصة وحرضوا قبائل الحموم على التمرد والقيام ضد يافع وإخراجهم من ديارهم عنوة وأمدوهم بسلاح ومقاتلين من آل جابر والعوامر.

وهجم الحموم وأنصارهم على يافع، وأحاطوا بهم من كل جانب واستمر يافع يناضلون ويكافحون أربعين يوماً، ولما نفذ الماء والزاد والذخيرة سلموا حصونهم إلى آل كثير في رجب سنة ١٢٧٥هـ، وانسحبوا بأسرهم إلى القطن بعد أن جُرِّدُوا من كل أملاكهم.

وقعة "الحصاة"

والحصاة حصن شاهق كان مقراً لعبود بن محمد زعيم آل حرير الجعديين، وكان هذا الزعيم يتحدى القعيطي ويجاهر بالعداء لكل يافعي، وكان حصنه وكراً لآل كثير يلجأون إليه بعد شن غاراتهم على يافع، ولقد تضرر يافع من هذا الحصن وتكبدوا خسائر فادحة، لذلك أرسل الأمير عبدالله بن عمر بن عوض القعيطي جماعة من يافع وأمرهم ألاَّ يعودوا إلاَّ بعد احتلال الحصن وإبادة من فيه من المقاتلين أو أسرهم.
وفي ليلة حالكة الظلام هجم يافع على الحصن ولم يكن حماته يتوقعون هذا الهجوم فوثب بعضهم من الشبابيك حذر الموت وقتل نجل الزعيم وأسر البعض، كان ذلك ليلة ٢٥ رمضان سنة ١٢٧٦هـ[١٦/٤/١٨٦٠م]. وبعد الاستيلاء على هذا الحصن أمنت الطرق بين بلدان القطن وشبام وعاد السلام.

آخر مؤامرة للسلطان منصور

وأخيراً بعد أن خانه الحظ في تدبير مكايده ومؤامراته فكَّر في أن يقوم بمذبحة ثانية ليضمها إلى مذبحة المساجد، فكَّر في اغتيال السلطان عوض بن عمر القعيطي وكبار مستشاريه وأعوانه من يافع والعبيد، أمثال عبدالله مانع بن علي جابر اليافعي وسالم بن علي بن هرهرة اليافعي وعمر عبدالله بوبك اليافعي والحاج الماس وغيرهم. اجتمع ببطانته في قصره وشاورهم في الأمر واتفقوا على أن يدعوا السلطان القعيطي وكبار

رجاله لحضور حفلة ختان نجله ثم يغتالهم عن بكرة أبيهم. ويقول باعباد إنهم وضعوا أكياساً من البارود على البساط المعد لجلوس المدعوين من يافع، وشاء الله أن ينجو القعيطي وأعوانه من المكيدة الشنيعة التي دبرها لهم حليفهم منصور، فقد سَمِعَت خادمٌ عجوز كل ما دار من حديث المؤامرة في قصر منصور والخادم من إحدى الأسر الفقيرة التي كان يواسيها السلطان عمر القعيطي بالمال ويعطف عليها كل العطف، قابلت الماس عمر في طريقها إلى قصر السلطان القعيطي وأخبرته بمؤامرة السلطان منصور الكثيري، فهرع الماس عمر إلى القعيطي، ودهش القعيطي وأعتراه الذهول لا خوفاً من الموت فهو الباسل المقدام ولكن لأن محالفة قوية تربط السلطانين برباط الود والولاء ولم يحدث من يافع ما يعكر صفو تلك الصداقة ويدفع بمنصور إلى الخيانة والغدر.

مقتل السلطان منصور

لقد تعددت مكايد منصور وتكررت مؤامرته ضد يافع وآخرها هذه المكيدة الشنيعة التي لو نفذت لغيرت مجرى التاريخ الحضرمي، وليس من الحكمة ولا من الحلم التسامح واللين من جانب القعيطي فقد تكون الشدة أحياناً من الحلم وفي هذا يقول المتنبي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه

إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

لذلك رأى السلطان عوض وأعوانه من يافع أن يدعوا السلطان منصور إلى مأدبة ويفتكُوا به وببطانته، وتحرك السلطان منصور من قصره إلى قصر الخضراء وأجلسوه في غرفة عُليا وهناك ضربه أحد اليافعيين بالسيف فسقط جثة هامدة، ثم قتلوا ابن عمه عبدالله بن علي بن جعفر واربعة من مماليكه والقوا القبض على بقية آل عيسى بن بدر وعبيدهم وأجلوهم عن خشامر وقرى القطن.

ويقول باعباد: إن زوج السلطان منصور هرعت إلى قصر الخضراء حين علمت بمقتل زوجها وكان في يدها سيف، وعند مدخل القصر قابلت سالم بن علي بن هرهرة وعبدالله مانع بن علي جابر فهوت عليهما بالسيف وجرحتهما جرحاً بسيطاً وأخذا يقاومانها بشيء من اللين والرأفة ولكن لما تمادت في غيها ضربها أحدهما بالسيف فهوت نحو الأرض ميتة، يا لها من جرأة وشجاعة سيدة يافعية تحمل السيف لتقاتل به جماعة من يافع انتقاماً لزوجها الكثيري، أنها مثل أعلى للحب والإخلاص والوفاء.

وأراد جماعة من يافع قتل الأمير عمر نجل السلطان منصور الكثيري ولكن السلطان عوض منعهم، وليس هذا فقط بل أحاطه برعايته وأكرمه كل الإكرام وقرر له مرتباً شهرياً مدى حياته، ولما رغب الأمير عمر في السفر إلى اندونيسيا زوده السلطان عوض بكل ما يحتاج إليه خلال سفره ومنحه مبلغاً كبيراً من المال.

انفرد السلطان عوض بن عمر القعيطي بحكم شبام وركز السلطة في يده ولكن من غير استبداد فقد كان لا يبت في أمر الاً بعد أن يستشير أعوانه من يافع، وهكذا استطاع يافع أن يوطدوا مركزهم ويمدوا سلطانهم وأن يكَوِّنوا لهم دولة في حضرموت بعد صراع استمر عشرات السنين[١].

[١] - من أراد المزيد فليقرأ "في جنوب الجزيرة العربية"، و"تاريخ حضرموت السياسي" للمؤلف.

الداعي إلى الله

وهذا لقب أطلقه السيد حسين بن عبدالله الدباغ على نفسه حين قام في يافع بحركته التي هزت اليمن وادخلت الرعب في حكومة عدن.

جاء السيد الدباغ من مكة المكرمة مسقط رأسه إلى اليمن ونزل ضيفاً على الإمام، وبعد أربعة أشهر قضاها في اليمن اطلع في خلالها على كل صغيرة وكبيرة سافر إلى إيطاليا ومنها إلى الحبشة فبريطانيا فالهند فحضرموت، وهناك أقام في المكلا وأنشأ مدرسة باسم الفلاح وكانت الأولى من نوعها، ولقد انتجت مدرسته وتخرج عليها عدد، هم اليوم من كبار موظفي الحكومة القعيطية الحضرمية، وغادر السيد الدباغ المكلا إلى لحج، وهناك أنشأ مدرسة باسم الفلاح، وترك لحج إلى عدن وأنشأ مدرسة ثالثة باسم الفلاح.

وفي رجب سنة ١٣٥٧هـ [١٩٣٨/٩/٢٠]غادر عدن وسافر إلى اليمن براً لزيارة ولي عهد اليمن سيف الإسلام أحمد (الإمام الحالي)[1] ومعه أربعة وعشرون طالباً من أبناء يافع وغيرهم بطبولهم وملابسهم الرسمية، وعندما وصل الضالع عدل عن الذهاب إلى تعز وذهب بفرقته الموسيقية المكونة من الطلبة إلى يافع التي تبعد عن إمارة الضالع شرقاً بحوالي ٨٨ ميلاً .

وفي ١٦ رجب عام ١٣٥٧هـ [١٩٣٨/٩/١١] وصل يافع فقوبل بحفاوة بالغة واسعة النطاق، وأقام في منفرة في بلاد المفلحي، وهناك أنشأ مدرسة باسم الفلاح

---

[1] - أي زمن رحلة المؤلف ١٩٥٤م.

وانضم إليها عدد كبير من أبناء رؤساء يافع وأعلن للملأ أنه نوى الإقامة في يافع لنشر العلم وتمكين أصول الدين في قلوب يافع وغيرهم من سكان الجنوب.

وكان السيد الدباغ على جانب كبير من الدهاء وقوة الشخصية وفصاحة اللسان، لذلك أخذت دعوته تمتد ويتسع نطاقها في يافع وفي خارج حدود يافع وجاءته الوفود من قبائل كثيرة للسلام عليه وتهنئته بنجاح دعوته ووصلته دعوة من بعض المشايخ في مقاطعة البيضاء ورداع.

وفي مساء ١٥ شعبان عام ١٣٥٩هـ [١٨/٩/١٩٤٠م]سافر وبصحبته ثلاثمائة مسلح وعدد من الطلبة بطبولهم ووصل الظاهرة يوم ٢٠ شعبان. وعلم الإمام بوصول هذه القوة التي يقودها السيد الدباغ إلى اليمن فخاف وذهبت به الظنون مذاهب شتى، وأراد الإمام أن يقضي على هذه القوة الزاحفة قبل أن يتسع نطاقها ويمتد لهيب خطرها، لذلك جهز ٨٠٠٠ مقاتل تحت قيادة السيد الضميمي، ولما بلغ السيد الدباغ نبأ قدوم جيش الإمام انسحب من اليمن إلى بلدة حَمْرَة في يافع، ولكن الجيش اليمني أحاط بالبلدة للقبض على السيد الدباغ الذي أصبح عدد أتباعه نحو ألفين واشتد القتال بين الفريقين واستمر النضال ثلاثة أيام وكان النصر لجيش الإمام وكانت الخسائر فادحة في الفريقين.

وعاد السيد الدباغ وفلول قوته إلى بلاد القطيبي[١] التي تبعد عن عدن ٦٨ ميلاً، وهناك أعاد الكَّرة فدعا القبائل إلى التكاتف والتعاون والصلاح فاجتمع حوله عدد كبير من قبائل ردفان. وخافت حكومة عدن من تكتل القبائل وتجمعها حول الداعية السيد الدباغ، فأرسلت منشوراتها إلى أنحاء جنوب الجزيرة العربية تطلب إلقاء القبض عليه مقابل مكافأة قدرها عشرة آلاف روبية وخمس بندقيات.

---

[١] - وردت في الأصل "القطبين"وهو خطأ.

واستمر السيد الدباغ في دعوته ونشاطه. وفي ٢رمضان عام ١٣٦٠هـ [١٩٤١/٩/٢٣م] قُتل ضابطان بريطانيان ما بين الضالع ولحج فظنت حكومة عدن أن للسيد الدباغ يداً في مقتلهما، فأرسلت طائراتها تلقي المنشورات على بلاد قُطيب طالبةً تسليمه مع ستة من رؤساء البلاد، وهددتهم بإلقاء القنابل عليهم إذا لم يجيبوا طلبها، ولكن قبائل قطيب رفضت قبول طلب حكومة عدن، فأرسلت الحكومة طائراتها وأخذت تلقي القنابل في رمضان واستمر القاء القنابل ثلاثة أشهر وعززت طائراتها بقوة من الجنود تحاصر القبائل، وذات ليلة هجمت القبائل وعلى رأسها السيد الدباغ على القوة المحاصرة واشتبك القتال في ثلاث مناطق الحمراء والثمير والسليك، وكان النصر للقبائل إذ فرَّت القوة المحاصرة تاركة خلفها كثيراً من المؤن والمعدات الحربية وكان عدد القتلى والجرحى من الجانبين كثيراً.

وأخيراً توسط سلطان لحج وبعض رؤساء المحميات بين الفريقين وهدأت الحالة، وفي صفر سنة ١٣٦١هـ [١٩٤٢م] سافر الدباغ إلى حضرموت سراً لزيارة بعض أصدقائه وعندما وصل المشهد أُلقي القبض عليه بواسطة حاكم الهجرين السيد محمد عوض النقيب أحد طلبة السيد الدباغ الذين تخرجوا على يده في مدرسة الفلاح بالمكلا وسلَّم السيد الدباغ إلى يد المستشار الانكليزي مستر انجرامس الذي أرسله بدوره إلى عدن ومنها إلى بلاد العربية السعودية حيث وافته المنية بجيزان عام ١٣٦٢هـ [١٩٤٣م].

جغرافية يافع

تقع بلاد يافع على هضبة صخرية تحدها شمالاً وغرباً اليمن، وتحدها جنوباً محميات عدن، وتحمل هذه الهضبة العالية كتلة جبلية وعرة المسالك أعلاها جبل ثمر الذي يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٨٢٤٥ قدماً.

وعلى الرغم من وقوع هذه الكتلة الصخرية في المناطق الحارة فأن مناخها معتدل جاف، بل يميل إلى البرودة إذا قيس بالمناخ الحار الذي يسود المناطق الجنوبية كلحج وعدن والعوالق وحضرموت، ولا شك أن الارتفاع هو العامل الوحيد لاعتدال مناخ يافع العليا فإن المعروف أن الهواء لا يكتسب الحرارة مباشرة من الشمس وإنَّما عند ملامسته لسطح الأرض لذلك نجد الهواء في سماء يافع العليا عليلاً وأحياناً بارداً ولا أثر هناك لرياح السموم، وتهطل الأمطار هناك صيفاً بسبب الرياح الموسمية



أراضي زراعية على سفوح جبال يافع العليا

الجنوبية الغربية وهذه الرياح تمر على اليمن أولاً ولذلك نجد كمية الأمطار الساقطة في اليمن أكثر مما هي في يافع.

وينحدر جزء كبير من مياه الأمطار إلى الأودية العميقة حيث يزرع البن. وأعظم هذه الأودية وادي حطيب الذي يتصل بوادي حَمْرَة عند نهايته ويصب في وادي بنا وهذا الوادي يمد أراضي أبين بالماء طول العام.



أراض زراعية على سفح جبل عال[1]

ومما تجدر الإشارة إليه أن معظم مياه الأمطار يستغلها يافع في ري الأراضي الزراعية القليلة بطرق حديثة مدهشة. ولم يأت ذلك عن طريق التعليم بل ادركوه بفرط الذكاء وكثرة العناية وطول التجربة.

---

[1] -صورة بديلة اخترناها لعدم وضوح الأصل.

واهم المزروعات الذرة والبن والقمح والبرسيم. وتمد اليمن يافع بالحبوب أحياناً، وقلت أحياناً لأن يافع قد تتعرض لإغارات الجراد، وقد يكون هطول المطر في فترات متباعدة، وهذا بالطبع يؤثر تأثيراً كبيراً في الانتاج.



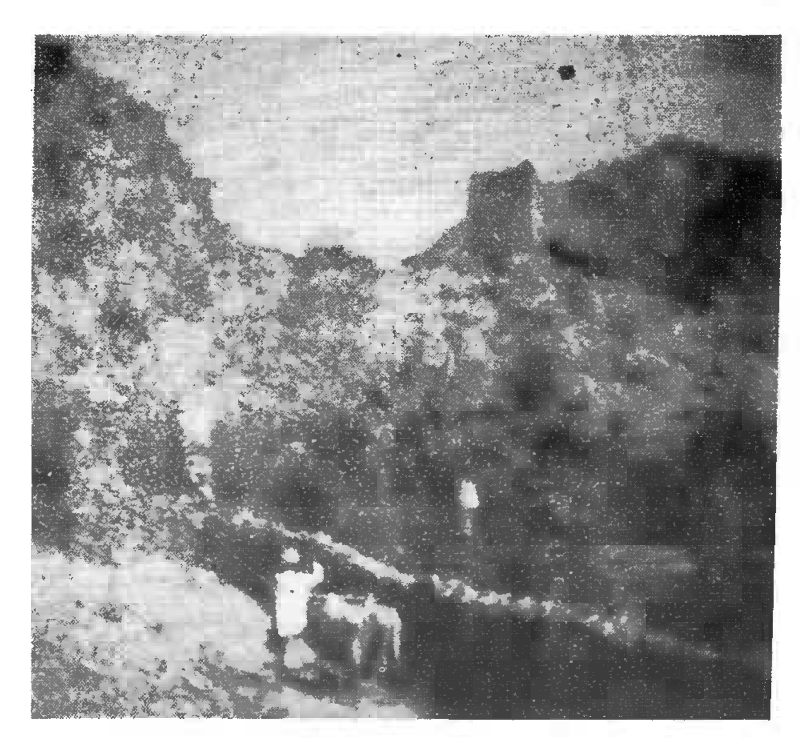
أشجار البن في يافع السفلى[1]

والناس هناك لا يعتمدون في ري الأراضي على مياه الأمطار فقط، بل أيضاً على مياه الآبار الأُرتوازية التي يبلغ عمقها من ١٥ إلى ٣٠ قدماً. ويُرفع الماء من الآبار في دلاء من الجلد مربوطة بحبال موثقة إلى حيوانات تسير بها إلى أسفل الممر المائل وهذه هي الطريقة البدائية السائدة هناك[2].

---

[1] - صورة بديلة لما ورد في الصل لعدم وضوحها.

[2] - طريقة متح الماء أو انتزاعه من البئر بالدلو عن طريق ضمد من الثيران أو الجمال أو الحمير، وربما مجموعة من الناس عند الحاجة تُسمى (السِّناءة/ السَّناة /السِّنَاية). وكان يستخدم غالباً زوج من الثيران "ضِمْدْ" وتنحصر حركته ذهاباً وإياباً في المكان المخصص له وهو ما يُعْرَفْ بـ "المِجْلابْ" ومساحة طولية بحجم طول عمق البئر وينزاح إلى الأسفل بشكل انسيابي أي أنه ينخفض بالتدريج من الأعلى إلى الأسفل لتسهيل الحركة أثناء النزول حين تكون الدلو ممتلئة بالماء.



بئر أرتوازية في يافع السفلى

الثروة الحيوانية

ومن أهم الحيوانات الموجودة في بلاد يافع، الماعز والغنم والبقر والحمير، ويعتبر الغنم والماعز أعظم المواشي التي تقدم للسكان الغذاء من اللحم واللبن. ويُستعمل البقر غالباً في حراثة الأرض وفي رفع الماء من الآبار. أما الحمار فيعتبر المقيم على الإخلاص والوفاء وهو الحيوان الذي يثقل ظهره بالأحمال الثقيلة.

الحالة الاقتصادية

ومساحة الأراضي الصالحة للزراعة والإنبات محدودة جداً، سواء التي في سفوح الجبال أو التي في بطون الأخاديد والوديان. وأهم الغلات البُن والذرة والقمح وهي فيما عدا البن – لأشد حاجة السكان لا سيما إذا شح المطر أو أغار الجراد على الزرع ولذلك قد يعتمدون على اليمن لسد حاجتهم من الحبوب. أما الزيوت والمنسوجات فهم يبتاعونها من عدن ومن أسواق اليمن كسوق البيضاء.

وتقدر ثروة الشخص هناك بما يملكه من أراضٍ زراعية ولهذا فالثروة محدودة وهذا من أهم الأسباب لنزوحِ كثير من يافع من بلادهم إلى الخارج.

وهذه الهجرة أفادتهم إلى حد كبير، فقد استطاع بعضهم أن يكونوا ثروات في عدن واندونيسيا وملايا.

ومنذ بضع سنين بدأوا يهاجرون إلى المملكة العربية السعودية وِحداناً وجماعات حتى بلغ عددهم أكثر من خمسمائة نسمة. وكل المهاجرين من يافع خير مثال للنشاط والجد والأمانة والإخلاص والوفاء.

ولقد استفاد المهاجرون في الخارج لا من الناحية الاقتصادية فقط، بل ومن الناحيتين الاجتماعية والثقافية. فاليافعي في الخارج أو اليافعي في بلاده الذي عاد من هجرته أكثر مرونة وأوفر ثقافة من اليافعي الذي لم يغادر بلاده إلى الخارج.

المواصلات

والطرق وعرة لا يمكن اجتيازها إلاَّ بمشقة وجهد، فالعقاب ذات الانحدارات الهائلة كثيرة. على أن هناك طريقاً صالحاً لسير السيارات إذا رُمِّمَ وَهُذِّبَ وَعُبِّد وهو الطريق الذي يمتد من لَبْعُوس شرقاً إلى الجُربَة غرباً.

والحمير أهم وسائل المواصلات بين بلدان يافع وبينها وبين البلاد المجاورة لها. ولهذه الحمير قدرة عجيبة على صعود العقاب الوعرة واختراق الممرات الصخرية الملتوية.

ومعظم الناس يحبون السير على أقدامهم أكثر من الركوب لأن اعتدال الجو يساعدهم على ذلك. وأنا أثناء رحلتي كنت أمشي ساعتين أو ثلاثاً دون أن أشعر بتعب أو ملل.

الحالة الاجتماعية

وقبائل يافع سواء في المناطق العليا أو السفلى لا تزال تحتفظ بالصفات العربية كالكرم والصراحة وحماية المستجير والدفاع عنه بكل مرتخصٍ وثمين.

والنساء سافرات الوجوه، والعفة أبرز صفة تحتفظ بها المرأة اليافعية وتعتز بها، وهُن يشاركن الرجال في فلاحة الأرض وريِّها وزراعتها وفي تربية المواشي والأغنام وقد يشاركنهم أيضاً في الحرب.

والمرأة اليافعية تستقبل الضيوف حتى في غياب زوجها وتقدم لهم القهوة ولكن في منتهى ما يتصوره العقل من العفة والعزة.

وإجراءات الزواج عند اليافعيين مبسطة إلى أقصى حدود البساطة، وتخضع المرأة لزوجها خضوع الأَمَةِ لسَيِّدها ولا تطلب الطلاق من زوجها مهما كانت معاملته لها قاسية. ومتى طُلِّقت يصبح أمر زواجها في يدها، ولكن ليس لها أن تختار إلاَّ بعد موافقة أبيها أو من يقوم مقامه، وهكذا عكس البنت البكر فلا يؤخذ رأيها عند زواجها. وزواج ابن العم من ابنة عمه له المقام الأول حتى ولو كان أحدهما فقيراً والآخر غنياً.

والحماة من أكبر الأسباب لتوطيد الروابط وتوثيق الصلات والعلاقات بين الزوجين وتعطف كل العطف على زوج ابنتها وهذا عكس ما نشاهده في مصر فأن الحموات هناك يتدخلن في كل شيء يتعلق بشؤون أزواج بناتهن ومتى ينشأ الخلاف بين الزوجين ذلك الخلاف الذي كثيراً ما يؤدي إلى الطلاق. ويمتّن عرو القرابة عند اليافعيين على ناحيتن :

النظام الأموي والنظام الأبوي مع أرجحية ناحية الأب على ناحية الأم. ووصلت الأسرة عندهم إلى أضيق نطاقها، فأصبحت لا تشمل إلاّ الزوج والزوجة وأولادهما ما داموا في كنف الأسرة، غير أنه لا يزال يوجد لديهم رواسب من النظم القديمة، فكل فرد ينتمي إلى أسرتين عامتين هما أسرة عمومته وأسرة خؤولته ويرتبط أفراد كلتيهما بطائفة كبيرة من الروابط الاجتماعية وبكثير من الحقوق والواجبات وذلك إلى جانب انتمائه إلى أسرته الخاصة الضيقة التي تتألف من أبويه وأولادهما.

ومن الغريب أنه بينما الأتراك يمنحون البنت نصيباً من التركة يساوي نصيب الولد، نجد بعض الناس في يافع لا يعطون الإناث نصيبهن من الإرث البته. ولما سألناهم عن سبب هذا الحرمَان المخالف لنص الإسلام قالوا إن المرأة عادة تعيش في كنف زوجها وهو وحده المسؤول عن اشباع رغباتها الضرورية وغير الضرورية. أما الذكور فهم الذين يعُولون أنفسهم ويعُولون آباءهم وأُمَّهاتهم ومن يلحق بهم من أعضاء الأسرة، والحقيقة إننا لو حلَّلنا هذه العادة الشاذة الـ خالفة للكتاب والسنة من الناحية النفسية لوجدناها ترجع إلى الأنانية. فهم لا يريدون أن ينتقل جزء من أموال المورث إلى زوج بنته وهو أي الزوج عنصر دخيل على الأسرة. وعلى كل حال فإن هذه العادة السيئة أخذت تزول تدريجياً وستختفي وتدخل في خبر كان حين يُثقف الناس وينتشر التعليم.

وفي أي بلد من بلدان يافع حَلَلت فإنك تدعى لشرب القهوة، وفناجين القهوة كبيرة واسعة ولا مقبض لها، وتتناول الفنجان المملوء في يدك اليمنى ويطوف الساقي بالدَّلة بين الضيوف من واحد إلى آخر، ويشرب الضيف فنجانين أو ثلاثة أو أكثر من ثلاثة. والبُن اليافعي معروف بجودته وبمذاقه اللذيذ وهم يشربون القهوة ليلاً ونهاراً من غير سكر ومن غير لبن. أما الشاي فلا يُشرب إلاَّ نادراً.

والطعام الرئيسي في يافع يتكون غالباً من لحم ومرق وخبز وعصيدة معمولة من الذرة. ويتولى المضيف توزيع اللحم على الضيوف بالتساوي تقريباً، وحين يقدم الطعام يجلس المدعوون على ركبهم ثم يتربعون بحسب العادة العربية في الولائم، وهم يتناولون الطعام بيد واحدة واستعمال اليد اليمنى يعتبر مراعاة لآداب المائدة العربية. وترى في ركن من غرفة الطعام شخصاً يحمل إبريقاً فيه ماء ساخن يصب منه على أيدي الضيوف ويتلقف الماء القذر طشت آخر تحت اليدين. ويحملون الماء في كاسات وعيونهم يقظة منتبهة يسرعون بالتقديم لكل من يشير إشارة طفيفة عاجلة أو يهمس همساً بما يريد.

والعادة المتبعة في بلاد يافع أن يقوم على خدمة الضيوف أولاد المضيف وأحياناً الضيف نفسه. وهم لا يأكلون الخضروات ولا الفواكه لندرتها.

وطريقة السلام عندهم هو أن ينحني كل منهما للآخر ويقبل يده. وعندما يجلس على الأرض يجب ألاَّ تكون أقدامه ممدودة في وجه أحد من الحاضرين فقد يعتبر ذلك إهانة. ويفضل أن تكون القدمان مخبوءتين تحت الساقين.

وليس بين اليافعيين طبقات فالديموقراطية تسود كل قبيلة منهم ولا أثر للرق عندهم. وهم بوجه عام مَيَّالون للمرح والضحك يتقبلون النكتة ويبادلونها، وهم مع ذلك سريعو الغضب، كثيرو الجلبة والصياح يرفعون أصواتهم عند الحديث حتى لتحسبهم يتشاجرون.

والموبقات في يافع لا وجود لها البتة، فلا هناك بغاء ولا خمر ولا قمار، ولذلك لا نجد لأمراض السل والزهري والسَّيَلان أثراً بينهم. وليس هناك ملاجئ ولا مستشفيات ولا أطباء. فالحالة الصحية في يافع جيدة جداً[1].

الحالة العلمية والوعي القومي

ليس في يافع السفلى ولا العليا مدارس سوى عدد قليل جداً من الكتاتيب يتعلم فيها البنون القراءة والكتابة ومبادئ الدين.

فالجهالة تسود البلاد اليافعية من أقصاها إلى أقصاها. ويوجد في يافع شعراء وأشعارهم مزيج من العامية والفصحى. وهناك أغانٍ شعبية وقد ينتقل بعضها إلى البلدان المجاورة لهم ولكنها لا تحمل شيئاً من صفات الخلود فسرعان ما تختفي وتحل محلها أغانٍ جديدة.

ونحن هنا نُورد قصيدة عصماء للشاعر الشيخ أحمد أبي بكر النقيب شيخ الموسطة قدمها للسلطان عيدروس بن محسن العفيفي منذ بضع سنين. وهي صورة للشعر الحميني[2].

---

[1] - أعتقد أن المؤلف قد جانبه التوفيق بوصف الحالة الصحة بالجيدة جداً، مع أن انعدام المستشفيات وكل صنوف الخدمات الطبية حينها كان سائداً وتسبب ذلك بانتشار الكثير من الأمراض.

[2] - نظراً لأخطاء النقل والغلطات المطبعية في هذه القصيدة والتي تليها اعتمدت نصيهما من كتابي (الشيخ أحمد أبوبكر النقيب حياته واستشهاده في وثائق وأشعار) الصادر عام ٢٠٠٧م.

بسم الله الرحمن فاتق أرض كانت في الرتق
هام المولع ذي درج فكره على ذاك الرتوق
سبحان من حكّم ونظمها على سبعاً طبق
وساسها عالماء بسطها ثم بالقدره وثوق
والعالم العلوي طباقه سبع في علمه سبق
نظّم وحكّمها طباقاً سبع في سبعٍ طبوق
ثم الصلاة آلاف صلوا عدّ ما الناطق نطق
على محمد صفوته هو صاحب القول الصدوق
يا هاجسي سرِّح وخُط أبيات واحذر من ربق
إن اللسان افخر سلب وأخطر سلب عند الربوق[1]
ها بعد يا عازم من القدمه محل أهل الوثق
مَلَمْ في يافع وأصل القبيله فيها وثوق
ما هل حوادث فارقت من بين يافع وافترق
شور الفيالق ذي عُطل لما سحق بقعا سحوق
والأصل من ساد القبُل واحكم بنطقه في الحلق
والرفق طبعه والشفق والصدق سيفه للحقوق
الكبر حطه وامتثل لا شاف في فكره حَرَق
والمكر ما شله لأن المكر في أهله يحوق

[1]– احذر من ربق: احذر من الزلل. الربوق: الزلل أو الوقوع في محنة.

وأحسن نوايا صالحه والعبد في ربه يثق
حافظ لعبده هو لطيفاً ثم في حكمه شفوق
يا مرسلي رشح لمُهره ذي تفيدك بالحزق
وأعبُر بلاد الموسطه هم كنز رأسي بالحزوق[1]
واعبر بحد أهل المَسَنْ خاوي مخوه في روق
والحال واحد لا صدق رحنا نرقع للشعوق
واسرح وخله في شمالك محجبه فيها أرق
سرمد وهي لاصي ومردع للجواهم والبروق
واطلع جبل عالي وبه نصبه على الحدِّه شهق
ميزانهم وافي عساهم يحفظوا من شي يحوق
ومر في وادي حمومه خير وادي ذي فلق
بين المكاتب مختلط عاقل يهر راس الحلوق
واعبُر في السعدي رجاله ذاكيه وقت الحمق
لَتْقاربت لصفاف وقت الحرب تصلح للحموق[2]
واطلع على القاره محكم حيدها فيه الرشق
لوآثار فيها سابقه للمندعي في كل سوق
سلم على السلطان جامع شمل يافع ذي فُلِق
سلم عليه آلاف ما البارق برق وأمسى يسوق
لا اتخبرك صفيت له في قول صافي ذي يثق
هاجت عواصف بالأمم من غربها لما الشروق

---

[1]- الحزق: الخطر.

[2]- الحموق: الحماسة الشديدة.

وأهل الجشع وأهل الطمع حاروا وهم بآخر رمق
كادوا وخانوا في أمم والعاقبه فيهم تحوق
لا بد من ويلات تهدم جمعهم من كل شق
معهم صنايع مخفيه كلن يبى منهم يفوق
من مكرهم قاموا مع اليُهْدَان في قهر المحق
باطل يسووا عالعرب والقدس مجمع للعروق[1]
يا كل مؤمن قو عزمك من نذق نفسه نذق
والباطل آيُرفع بعون الله ما تجلس ضيوق
يا بو محمد نطلبك تسمح لنا لا شي زلق
يا الأمر قم ناده ويافع باتجي بعدك دفوق
وأمر بما يرضي الإله واثبت وسابق من سبق
في حفظ لوطان أعتمد وأبنه مباني عالوثوق
مجلس معاكم في بِيَنْ نرجو ثباته من دهق
حكِّم لهم خِطَّه يعيشوا رهطكم أهل الحقوق[2]
قانون في جمع البلد لأهل الوطن في الحرث حق
كَثِّر من السكان من يافع ولصوات إبتفوق
حكم لماليه وأسس مجد ما مثله سبق
يسجل التاريخ لك ذكراً يخلد كالفتوق

١- اليهدان: اليهود.

٢- بيَنْ: أبين.

يقول أخو قاسم تقدم يا ابن محسن في الرفق
ما اليوم يافع فاهمه ان التفرق به خزوق
والريح با تدخل مع التفريق من تاك الخُزَق
يا كل عارف نبهوا ذي هم في الغفله غروق
ثم الصلاة آلاف صلّوا عد ما الناطق نطق
على محمد صفوته هو صاحب القول الصدوق

قصيدة وطنية له[1]:

سبُوح قدوس يا خير الطلب
يا مرتجى وأنت لي خير الطلاب
فرج همومي وضيقي والكرب
ومن قصد فضل جودك ما يخاب
يا الله لا اتضيَّقه فك العَكَبْ
سبحان ذي من دعا ليه استجاب[2]
يا خالق آدم بأرضه والرَّحب
وقال له كُنْ من الماء والتراب
وأزكى صلاتي على خير العرب
على الذي جاء بسُنه والكتاب
يقول أخُوْ قاسم الهاجس ولب
وجاب الاخبار من حصن الغراب[3]
ودّى مغاني على صوت الطرب
والحان يدّي على صوت الرباب
بازل سُمَيَّاً توصل واقترب
صوته شجى خاطري والقلب طاب
وبعد يا مرسلي قل لي وجب
عليك بالله تحمل ذا الكتاب
من مطرح أهل الشنع وأهل الرتب
كلّن على رتبته يخشى العتاب
الموسطه دربها يا خير درب
أهل السياسه وشجعان الحِرَاب
عُقّال واتباع يصُبُّوا من مَصَبّ
لا اتعاطلوا يتبعوا بعد الصواب
وان حد لقط منهم قول الصعب
ضموا مشوره على مولى الصعاب
من بينهم ما يحبون الذَّرَبْ
ولا نَطَفْ ذي يدخلهم وراب[4]
واعبر بحد الضبي سلم وَجَبْ
على المشايخ وللشيبه وشاب

---

[1] - هذه القصيدة أرسلها لشيخ مكتب لبعوس محمد محسن الضباعي، وفيها يتعرض لقضايا محلية ووطنية ويحذر من مغبة بيع الوطن للأجنبي ويبارك الانتفاضات التي قامت ضده في أكثر من منطقة من أرض الجنوب المحتل.

[2] – العَكَب: الضيق. وفي الفصيح العَكَبُ: الشدة في الشر.

[3] – ولب: وصل.

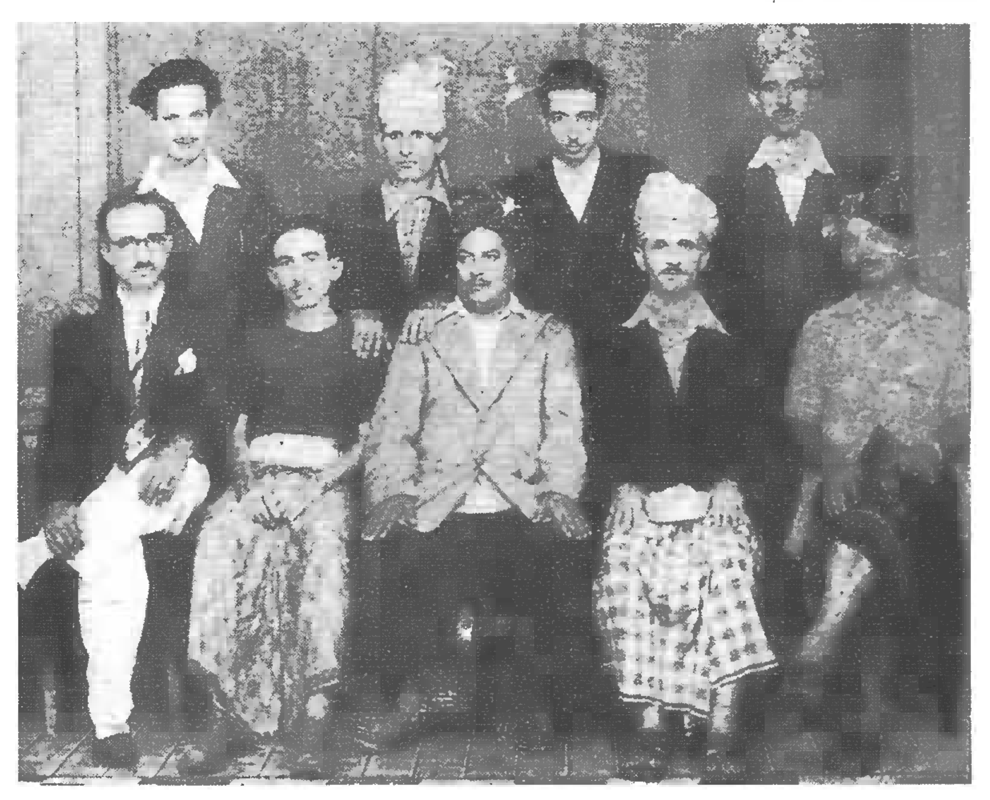
[4] – الذَّرب:لغو الكلام. النَّطَفُ: كثرة الإلحاح.

الأخبار قد حققت كلّن جرب ... وين الذي قال ما يعرف خطاب
ما قام بالوعد كِنّه قد غلب ... مختاف من صنعته فيها خياب
وبعد يا مرسلي عجّل وهب ... لا حد لبعوس عجّلْ في الجواب
واظهر على الحيد با تنظر عجب ... حصون متحكمه فيها صلاب
من قَرْن حَدّان لا الدِّيوان لَبْ ... ناد المخوه وديرتهم قراب
سلم على الشيخ بن محسن وجَبْ ... ثم أخوته والمخوه باحتساب
يا خير مكتب ويا خِيْرةْ سَلَبْ ... لا الشور واحد فلا يخرب خراب
الرأس والجسم واحد في العَطَبْ ... لا اشْتّان واحد شَكَتْ جَمْع العِصَاب
ذكرت عزم النصارى والعَيَب ... ملعون ملعون من هوَّن وخاب
يافع جبل فيح عالأرض انتصب ... واشعاب صعبه وسُكانه ذياب
با يهلكون المخادع والذنب ... من سام بيع الوطن بعده عقاب
ملعون من باع أرضه بالذهب ... والاّ الوظيفه يريد الأنتصاب
في مصر أقاموا صناعه والخطب ... والحرب يِذْوي وحتى في نصاب
والكازمي وابن عفرير اقتطب ... ثوره على الكفر تقمع كل باب
نادى المنادي يشلون السلب ... يجاهدون النصارى والخياب
بارق برق والوعد فيهم قد قرب ... كفاهمو ما تخطوا عالرقاب
واصل عليهم من المولى غضب ... بصنعة أيديهم ينالون العذاب
رَسَخَتْ عداوتهم مقرر في الكتب ... آيه صريحه مقرر في الكتاب
كم حاولوا يخرجوا من ذا الحنب ... وأعمالهم حاطت عليهم في الخراب
غيام مترادفه تحت السُّحُب ... عارض وبه دمدمه سَرَّب سراب
يا كُلّ حُرْ شِدّ عزمك واعترب ... صوت العرب قد ينادي للشباب
نادى المنادي بجامعة العرب ... في جمع لقطار با يظهر خطاب
وأزكى صلاتي على خير العرب ... على الذي جاء بسنه والكتاب

والوعي القومي في يافع خامد راكد، ولكن المهاجرين منهم يشعرون بما هم فيه من تأخر في كل شيء ويتألمون لذلك بعض الألم، ولا شك أن ذلك ناتج عن اختلاطهم بشعوب أرقى منهم ثقافة وأكثر خبرة بشؤون الحياة.

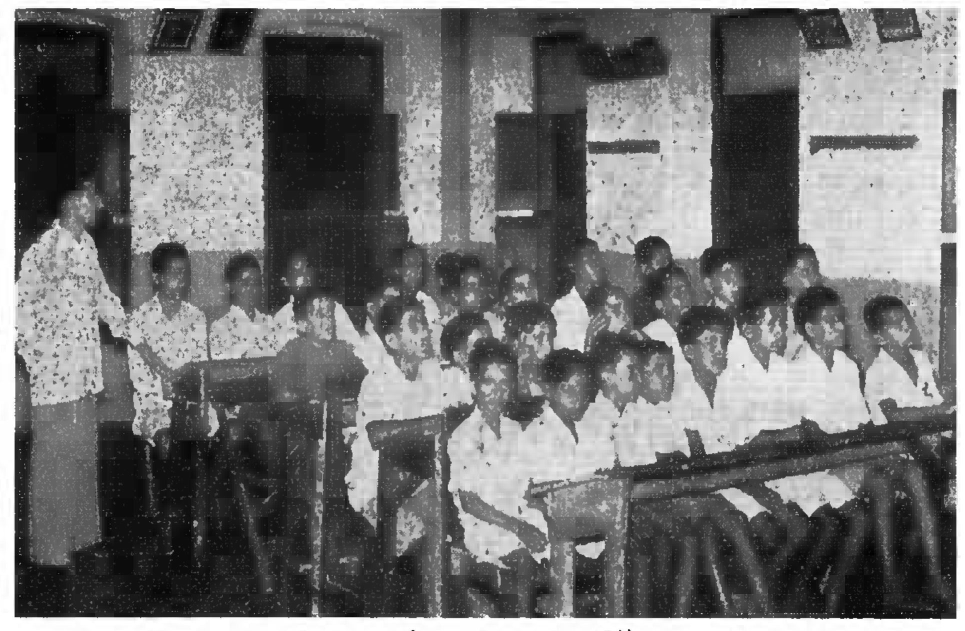
ولقد أنشأ يافع في اندونيسيا جمعية لهم كان لها نشاط محسوس قبل الحرب العالمية الثانية.

وفي عدن أنشأ يافع "جمعية شباب يافع "لإصلاح الذات ورفع مستوى قومهم إلى المكانة اللائقة بهم.



هيئة إدارة جمعية شباب يافع بعدن

(والله العظيم رب موسى وابراهيم ومحمد (ص) أعاهدكم بلساني وضميري أن أعد نفسي أخاً ومساعداً لكل من يشترك في جمعية "شباب يافع "وأن لا أخونه في أي مكان كان وأن أسلم اشتراكي الشهري وأُطيع ما أمَرَت وتأمُر به الجمعية مادام الغرض هو المصلحة العامة وأشهد الله على ما نطقت به والله خير الشاهدين).



طلبة جمعية شباب يافع بعدن

وللجمعية قانون خاص مطبوع يحدد أهدافها وواجباتها. وأقام جماعة من يافع بعدن أيضاً "نادي الاتحاد اليافعي"[1]. وكان على رأسهم الفقيد الشيخ

[1] - لجمعية "نادي الاتحاد اليافعي "قانون وقد كاتبنا الإدارة لإرساله إلينا لنشره في هذا الكتاب ولكنهم لم يرسلوه(المؤلف).

أحمد محمد بن سبعة الذي وافته المنية منذ شهرين وكل من الفريقين يريد إصلاح شؤون أبناء جنسهم في المهجر وفي الوطن.

ولقد سعى أناسٌ ومنهم السلطان عيدروس بن محسن العفيفي والسيد علي عبدالله العيسائي لجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم، ولكن المساعي لسوء الحظ باءت بالفشل.

وآخر محاولة لتوحيد جهودهم منذ عامين فقد اتصلت حين كنت في عـدن بالفريقين ودعوتهم في التكتُّل والتعاون والاتحاد ولكن المساعي ذهبت أدراج الرياح.



رئيس نادي الاتحاد اليافعي
الشيخ الفقيد أحمد محمد بن سبعة

الحالة السياسية

تنقسم بلاد يافع إلى قسمين: يافع العليا ويافع السفلى.

يافع العليا:

يبلغ عدد سكان يافع حوالي سبعين ألف نسمة معظمهم يحمل السلاح ويعتزون به، ويمتازون بقوة الشكيمة والشجاعة والدهاء، وهم أقرب إلى المَدَنية منها إلى البداوة ويرجع ذلك إلى هجرة بعضهم إلى الخارج واختلاطهم بأوساط أرقى منهم ثقافة وخبرة وأوفر علماً .



يتدربون على الرماية في الهواء



يدربون الصبيان على الرماية

وأهم المدن هناك هي:

قرية قريش ويقيم فيها بنو بكر ويبلغ عدد حملة السلاح منهم نحو ستمائة.

الشّبر – عاصمة مكتب الحضارم.

الهَجَر – عاصمة مكتب بعوس.

ذِيْصُراء – عاصمة مكتب الضُّبَي.

القُدمة – عاصمة مكتب الموسطة.

الجُربة – عاصمة مكتب المفلحي.

الصّيرة – وبها سوق كبيرة تُقام يوم الخميس من كل أسبوع.

مسجد النور – كانت عاصمة يافع العليا إبان الحُكم اليمني.

المَحْجَبَة – مقر السلطان الهرهري.

وتشمل يافع العليا خمسة مكاتب :

مكتب الحضرمي وهو أصغر مكتب، ومكتب لَبْعُوس ومكتب الضُّبَي ومكتب الموسطة ومكتب المفلحي.

وكل مكتب ينضم تحت لوائه فخائذ أو قبائل[1].

أولاً ـ مكتب الحضارم

رئيسه الأعلى الشيخ محمد محسن بن غالب والفخائذ التابعة له هي[2]:

١- العَطف- وعاقلهم الشيخ علي محسن الحضرمي

٢- ضيئان[3]- وعاقلهم الشيخ حسن صالح

ثانياً ـ مكتب البُعسي

رئيسه الأعلى الشيخ محمد محسن الضباعي وتنضم تحت لوائه الفخائذ الآتية[4]:

١- آل عمر

---

[1] ـ التقسيمات التي أوردها المؤلف لمكاتب يافع شابها القصور وتداخل في بعض التقسيمات وأخطاء في المسميات، لعل مصدرها من أخذ عنهم حينها، فضلا عن الأخطاء المطبعية ، ولمن أراد الاستزاده ننصح بالعودة للموسوعة اليافعية التي تحدثت باستفاضة عن مكاتب يافع العشرة ببلدانها وقبائلها.

[2] ـ مكتب الحضرمي، حاضرته (الشِّبر) ومشايخه آل بن غالب، ويتألف من أربعة أقسام: السّناني، البَلَحي، الثُّلثي، المرفدي، وكل قسم يُسمى رُبْع..

[3] ـ وردت في الأصل "صنيان" والصحيح (ذي غان) وتُنطق باللهجة "ذَيْ آن"، أو "ضَيئان"، حيث حلّ الضاد محل الذال والهمزة محل الغين، ربما لسهولة النطق خاصة عند التقاء الذال مع الغين التي تحل محلها الهمزة في لهجة يافع.

[4] ـ ينقسم مكتب لبعوس إلى ناصفتين: ناصفة لبعوس الجبل، وهم أهل ذي حَوْر، وتضم أربع قرى هي: المَغزى وأهل منصور والديوان وأهل أحمد. وناصفة أهل عَمْر ولبعوس السَّيل، وتضم أهل عَمْروالقرى الواقعة في الأودية الجنوبية والشرقية لمكتب لبعوس، أما قريتا الهَجَر ورباط العبادي فتتبعان شيخ المكتب ، وللمكتب فخائذ في هضبة الحد.[للمزيد انظر: الموسوعة اليافعية(١٠) مكتب لبعوس].

٢- آل عبدالصمد

٣- آل الجرف

٤- آل سخيَان

٥- آل بن متَّاش

٦- آل هرم

٧- آل بيهنة

٨- آل عديوه

٩- آل حريب

١٠- آل مضيق

١١- آل الشَّسْعة

١٢- آل البُر

١٣- آل حَبة

١٤- آل ظِبة[١]

١٥- آل أحمد

١٦- آل المغْرَا

١٧- آل منصور

١٨- آل الديوان

---

[١] - وردت في الأصل ."طبية" وهي خطأ.

ثالثاً ـ مكتب الضُّبَي

رئيسه الأعلى الشيخ صالح بن سالم بن عاطف جابر والفخائذ المنضمة تحت لوائه هي[1] :

١- الطفي - عاقلهم ابن اسكندر

٢- الصُّرأي[2] - عاقلهم بيت عاطف جابر

٣- الصلاحي- عاقلهم ابن عبدالرب بن ناصر

٤- الشرفي- عاقلهم بن ابو طلعة

٥- السعيدي - عاقلهم ابن السعدي

رابعاً ـ مكتب الموسطة

رئيسه الأعلى الشيخ أحمد أبوبكر النقيب ومساعده الشيخ حسين ابن صالح النقيب، والفخائذ المنضمة تحت لوائه هي[3]:

١- السُّعيدي - عاقلهم بيت النقيب

٢- المُسعدي - عاقلهم الجهوري

٣- الجرادي - عاقلهم ابن شهيون

---

[1] - كانت فخيذة السلفي تتبع مكتب الضُّبي وبسبب نزاعٍ قبلي عام ١٩١٦م انضمت إلى مكتب اليزيدي، كما تتبع الضُّبي ستة أسداس في هضبة الحد هي: البكري والفردي والذَّاودي والصّبري والجوهري والخَيدي. [للمزيد انظر: الموسوعة اليافعية (٩) مكتب الضُّبي].

[2] - وردت في الأصل "الصُّدي".

[3] - يتفرع مكتب الموسطة إلى أربعة أقسام ، تُسمى "أرباع" وهي: رُبع السُّعيدي والمُسعدي والجرادي واليَسلمي، وربع الحوثري والرُّشيدي والعُروي، ورُبع العيساني، ورُبع القَعيطي والعَلسي والخُلاقي والرّيوي. وتدخل ضمن المكتب قرية (قُريظة) في الحد ، وقرية (لَقمر أهل سعيد) وقريةَ أهل عيَّاش الشرفي اللتان انفصلتا عن مكتب الضُّبي في القرن الرابع عشر الهجري [للمزيد انظر: الموسوعة اليافعية(٨)مكتب الموسطة].

٤- اليسلمي – عاقلهم ابن عليو

٥- الحوثري – عاقلهم ابن سعيد العفيف

٦- الرُّشيدي – عاقلهم الحريبي

٧- العروي – عاقلهم الحِمْيَري

٨- العيسائي – عاقلهم أبو شامة

٩- القعيطي – عاقلهم ابن عتيق

١٠- الخلاقي – عاقلهم محمد علي الخلاقي[١]

ويلحق بمكتب الموسطة أيضاً.

١١- ريوي والداؤودي – عاقلهم الشيخ حسين بن صالح الداوودي

١٢- قريضي – عاقلهم الشيخ محمد عبدالله الحبيشي

١٣- بني ضبيان – عاقلهم الشيخ ابن عمر موسى

وفي الشعيب ست فخائذ هي السِّيَل والعردف[٢] والنجدي والقزعي والرباط والعنفدي كانت خاضعة لمكتب الموسطة والآن تحت إشراف الإنجليز.

خامساً ـ مكتب المفلحي

رئيسه الأعلى الشيخ قاسم بن عبدالرحمن المفلحي، وهو شيخ بلاد المفلحي السفلى أيضاً، ويقيم في خَلَّة وينوب عنه في بلاد المفلحي العليا أخوه الشيخ عبدالحميد بن عبدالرحمن المفلحي.

---

[١] - محمد علي الخلاقي، هو قاضي خلاقة عند زيارة المؤلف أما الشيخ فهو محمد قاسم العاقل والد الشيخ يحيى محمد شيخ خلاقة حالياً، وخلاقة ليست ملحق بمكتب الموسطة ولكنها جزء منه وتمثل مع القعيطي والعلسي والريوي رُبع الموسطة.

[٢] - وردت في الأصل "الأربف" وهو خطأ.

وتنضم تحت لواء مكتب المفلحي الفخائذ الآتية[1] :

أولاً – في المناطق العليا

١– الجُربي – عاقلهم هادي بن عبدالله القديمي

٢– منفرة – عاقلهم المنفري

٣– بنوبكر – عاقلهم عبداللاه بن دينيش البكري[2]

٤– آل يونس – عاقلهم محمد سالم اليونسي

٥– آل نعمان – عاقلهم قاسم بن عبد ربه

٦– عثارة – عاقلهم ثابت يحيى

٧– آل الذراحن – عاقلهم أحمد محمد بن حمزة

٨– آل سليمان – عاقلهم محمد خالد الحريبي

٩– آل الدهارش – عاقلهم الدهرشي

١٠– الطالبي– عاقلهم زين بن علي صالح

١١– السعدي عاقلهم صالح سعد بن قادش

١٢– السالمي – عاقلهم يحيى سالم الحلمي

١٣– التامي – عاقلهم ابن عجيل

---

[1] - نقسم مكتب المفلحي إلى قسمين:الأول: مكتب المفلحي الأعلى: وينقسم إلى ثلاثة أقسام، يسمى كل قسم منها (ثُلُثًا). وهذه الأقسام الثلاثة هي: ثلث الخُمُوس: الجُرْبي، والمَنْفري، والرُّبع، وأهل يونس، والنُّعْماني. وثلث الجبل الأعلى: الذراحن، والذَّهارش، والسَّليماني. وثلث المَشْألي. والثاني: مكتب المفلحي الأسفل، ويضم مشيخة المفلحي في (خَلَّة)، و(شُكَع)، وجبل (حَرير)، ووادي (مَرَات)، وبلاد بني مُسَلَم. [للمزيد انظر: الموسوعة اليافعية (٧) مكتب المفلحي].

[2] - بني بكر تدخل ضمن مكتب الضُبي، وليس مكتب المفلحي، وهو خطأ وقع فيه المؤلف.

١٤- الرُّبع[1] - عاقلهم ناجي محمد بن جمال

ثانياً - في المناطق الشمالية (بلاد بني مسلم)

١٥- كلثوم - عاقلهم محمد موسى بن علي سعد

١٦- القدام - عاقلهم القويعي

١٧- الثجر - عاقلهم الدهامي

١٨- ذي كنية[2] - عاقلهم عبدالله منصور

ثالثاً - في بلاد المفلحي السفلى

خَلَّة وملحقاتها - عاقلهم أحمد محسن المفلحي

الخربة - عاقلهم شايف ناجي

شُكُع - عاقلهم سعيد يحيى

صرارة - عاقلهم ابن العواضي

الظاهرة - عاقلهم قحطان بن محسن

أرحب عاقلهم عبدالرزاق بن حاجب

مَرَات - عاقلهم قاسم عبداللاه المفلحي

عرش - عاقلهم ناجي محمد

ومما تجدر الإشارة إليه أن بلاد المفلحي السفلى وبلاد بني مسلم تحت إشراف الإنجليز ولكن الحكم والادارة في أيدي آل المفلحي، وأول من هاجر من المفالحة إلى المناطق السفلى الشيخ قاسم بن ناصر المفلحي وأخوه حسين أقاما في جبل حرير (مرات) وقوي مركزهم في الظاهر وأرحب وغيرها ولقد منحهم إمام اليمن السلطة على

---

[1] - وردت في الأصل "المربع" وهو خطأ.

[2] - وردت في الأصل "ذي كنينة" وهو خطأ.

خَلَّة وشُكُع وملحقاتها، ولقد اطلعت بنفسي حين كنت في خَلَّة على الوثائق التاريخية القديمة التي كُتبت من قبل الإمام والتي مَنَحت الامتيازات لآل المفلحي.

وعندما جاء الأتراك واحتلوا جبل حرير خاف المفلحي على مركزه فاستنجد بابن عفيف سلطان القارة وبابن الشيخ علي سلطان المَحْجَبَه لطرد الأتراك من جبل حرير على تقسيم حاصلاته إلى ثلاث أقسام: قسم للمفلحي وقسم لسلطان القارة وقسم لسلطان المَحْجَبَه. واستطاعوا إخراج الأتراك ولكنهم أي الأتراك عادوا وهدموا حصن شُكُع، ولما ضعفت سلطة الأتراك منح إمام اليمن القاسم السلطة للشيخ يحيى بن قاسم المفلحي على رُبع منطقة الشعيب وكان عهدئذٍ الشيخ عبدالقادر السقلدي شيخاً على الشعيب.

يافع السفلى:

يبلغ عدد سكان يافع السفلى بما فيها يافع (الساحل) حوالي خمسين ألف نسمة معظمهم يحمل السلاح ومن مزاياهم الشجاعة والجَلَد والكرم وهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة.

وأهم المدن هناك:

القارة – وهي مقر السلطان عيدروس بن محسن العفيفي وينوب عنه ابنه الأمير محمد.

حَمُومَه – عاصمة يَهَر [١].

سَرَار – عاصمة كَلَد.

مِرْبَان– عاصمة السعدي.

رِبَان [٢]– عاصمة اليزيدي.

الخضراء[٣]– عاصمة الناخبي.

الحُصن– عاصمة يافع الساحل (أبين) وبها قصران للسلطان عيدروس وابنه الأمير محمد.

جعار – بها مركز اللجنة الزراعية الإنجليزية لأراضي أبين.

وتشمل يافع السفلى أربعة مكاتب[٤] هي : كَلَد والناخبي واليزيدي ويَهَر وكل مكتب يضم تحت لوائه فخائذ.

أولاً – مكتب كَلَد

ينقسم مكتب كلد إلى قسمين[٥] :

الجلاَّدي – ورئيسه الأعلى بيت العطوي.

المَنصَري – ورئيسه الأعلى بيت العبسي

ولكل قسم فخائذ :

---

١ - الصحيح أن عاصمتهم قرية (المُقيْصرة) في وادي حمومة الذي ينقسم بين مكتب يهر ومكتب اليزيدي.

٢ - الصحيح أن عاصمة اليزيدي هي الخضراء، مسكن شيخهم من أهل البطاطي.

٣ - غير صحيح لأن "الخضراء" هي عاصمة مكتب اليزيد، أما مكتب الناخبي فليس له عاصمة محددة ومشيخة المكتب في أهل الكُهَالي الساكنين في (ذي ناخب) و(العرْقة).

٤ - الصحيح خمسة مكاتب: يهر، اليزيدي ، كلد، السعدي، الناخبي، ولا أدري كيف اسقطت المؤلف مكتب السعدي ومشايخه آل العمودي. وينقسم مكتب السعدي إلى ثمان فخائذ كبيرة هي: العُمري، الذوَّادي، التامي، المحمّدي، القَبيلة، الأحمري، البارعي والعامري، الوعلاني[للمزيد انظر الموسوعة اليافعية(٤)مكتب السعدي] .

٥ - الصحيح أن مكتب كلد ينقسم إلى عشر قبائل رئيسية تتفرع عنها فخائذ وبيوت مستقلة، وهذه القبائل العشر هي: الجلاَّدي، السنيدي، العَلَوي، الحَنَشي، السَّعيدي، المَنصري، اليوسفي، الباقري، الجردمي، والزَّهوي ، ومشايخه آل بن عطية الهويدي الجلادي في (مُريقب) و(الغلاة) من وادي سرار [للمزيد انظر: الموسوعة اليافعية(٢)، مكتب كلد].

فخائذ الجلاَّدي

١- ابن عبدالهادي

٢- ابن عبدالباقي

٣- المخيري

٤- العلوي

٥- آل عمر

٦- السنيدي

٧- السعيدي

٨-الرهوي

٩- ابن لصروح

١٠-الهيثمي

فخائذ المنصري

١- آل غازي

٢- البركاني

٣-آل عياش

٤- الجداسي

٥- الربيعي

٦- الباقري

٧- البكري

٨- الدعاس

٩- ابن عطاس

١٠ الجردمي

١١- الأنعمي

١٢- آل نقيس

ثانياً ـ مكتب الناخبي

الرئيس الأعلى الشيخ الخضر بن محمد صالح الشقِّي[١]، وتنضم تحت لواء مكتب الناخبي الفخائذ الآتية :

١- آل قحيم

٢- آل حزر[٢]

٣- آل الكهالي

٤- آل عُلايه[٣]

٥- آل منصور

٦- آل بن ناجي

٧- آل مَرشد

٨- آل عمار

٩- بني عَصَر

[١] - الخضر الشقي شيخ سبّاح وقد أنشأ سلطنة خاصة به وتوفي عام ١٩٧٢م في سجن المنصورة، أما شيوخ مكتب الناخبي فهم آل الكهالي ويسكنون عدة قرى في وادي العرقة وفي قرية (بين السّبَل) في وادي ذي ناخب (للمزيد انظر: الموسوعة اليافعية (٦) مكتب الناخبي).

[٢] - وردت في الأصل "حز" وهو خطأ.

[٣] وردت في الأصل "علياية" وهو خطأ.

١٠- آل الثلث

١١- الكسادي

ثالثاً - مكتب اليزيدي

رئيسه الأعلى الشيخ أحمد بن محسن بن علي بن عبدالقوي البطاطي

وتنضم إلى مكتب اليزيدي الفخائذ الآتية :

١- نفاجي

٢- حَمَئي[1]

٣- كبابي

٤- تُلّبي

رابعاً - مكتب يَهَر

وهو أكبر مكتب في يافع السفلى رئيسه الأعلى الشيخ صالح حسين ابن سبعة.

ومكتب يهر ينقسم إلى قسمين

أولاً : يهر حمير سبأ، ورئيسه الشيخ سعيد حسين

ثانياً : يهر الخموسي بن قحطان، ورئيسه الشيخ عبادي جبران شنطور.

ولكل قسم فخائذ.

فخائذ يهر حمير سبأ

١- حميري الجبل

---

[1] - وردت في الأصل "حمامي".

٢- حميري الوادي - عاقلهم الشيخ عثمان محمد بن صالح.

٣- حميري الوسطى - عاقلهم الشيخ عثمان بن فريد طالب.

٤- العرمي - عاقلهم الشيخ ثابت منصر سالم العبدلي.

٥- العلوي - عاقلهم الشيخ سعيد ناجي بن إبراهيم.

٦- الربيعي - عاقلهم الشيخ صالح حسين بن جابر علي.

فخائذ يهر الخِمْوَس[١]

١- خميس الظُّبَهي - عاقلهم الشيخ عبادي جبران

٢-العُمَري - عاقلهم الشيخ عبادي راجح بن حلبوب

٣- المُحَرَّمي - عاقلهم الشيخ قاسم راجح بن حلموس

٤- مسلمي العبدلي - عاقلهم الشيخ هيثم عثمان بن الشيخ أحمد

٥- مسلمي العاطفي - عاقلهم الشيخ محمد يحيى بن عاطف

٦- الشبحي - عاقلهم الشيخ صالح يحيى قاسم بن مخارش

والأمن منتشر في طول البلاد وعرضها فليس هناك سرقات ولا نهب ولا سلب وعندما تتحارب قبيلتان فالفتنة تبقى محصورة بينهما ولا تتجاوز نطاقهما.

ومن النادر جداً قبول الدِّية عن القتيل فلا بد من الأخذ بالثأر من القاتل نفسه أو من أي فرد من أفراد قبيلته.

وليس لرؤساء القبائل ولا للسلطان الهرهري أو العفيفي أي سلطة على قبيلة القاتل لتسليمه لأهل القتيل أو لتنفيذ حكم الشرع فيه. ومن أكبر العيوب عند القبائل أخذ

---

[١] - وردت في الأصل "الخموسي" وهو خطأ، والصحيح خُموَس يهر ، وأصلها من خميس، أي جيش، جيوش، لأنها تتألف من خمس فرق وهي المقدمة والقلب والميمنة والميسره والسّاق . والخميس: قسم من أقسام مكتب يهر- يافع، وهو يتكون من ١٣ خميساً.

الدِّية أو تسليم القاتل لأهل القتيل لذلك قد تستمر الحرب بين القبيلتين عشرات السنين تتخللها فترات صلح قصيرة.

وعندما يعقد صلح بين فريقين وهو يكون غالباً على يد بعض الشخصيات البارزة من الرؤساء أو الشيوخ فأن كلاً من الفريقين المتحاربين يحترم شروط الصلح كل الاحترام ويعمل بها دون أن يغدر أو يخون.

ومما هو جدير بالذكر أن الصلح لا يُكتب على ورق ويوقع عليه كل من الفريقين المتحاربين، بل يكفي قبول أهل القتيل الصلح شفوياً.

وفي أثناء الصلح يتزاور الفريقان كأن لم يحدث بينهما شيءٌ. وخير مثال لذلك قبيلتا بني بكر وخلاقة فحين جمعت الشخصيات البارزة من بني بكر لعقد صلح بينهم وبين خلاقة قبلوا الصلح شفوياً لمدة سنة. وأصبح كل فرد من أفراد القبيلتين مطمئناً على نفسه كل الاطمئنان. ولقد مضى على الصلح عشرة شهور دون أن يحدث ما يخل بشروطه.

ولا شك أن هذا إن دَلّ على شيء فإنّما يدل على الوفاء بالعهود، وهي من أبرز الصفات الكريمة عند العرب القدامى.

وكل الأحكام عُرفية ما عدا في الأحوال الشخصية كالطلاق وعقود الزواج وما إلى ذلك فأنهم يرجعون في ذلك إلى الشريعة الإسلامية.

ومقر السلطنة الهرهرية في المَحْجَبَة بيافع العُليا، ولكن السلطان محمد صالح بن عمر بن هرهرة اليافعي يقيم في قصره الأبيض الشاهق الذي يقع على قمة جبل "حِلْيَن"

وعلى مُقربة من جبل العُر ومن الحدود الشرقية الشمالية لليمن.ولقد كان أبوه ذا شخصية قوية، وقد أُغتيل في شهر فبراير سنة ١٩٤٩م بيد أبناء عمومته.

ومُجمل الحادث أن محمد بن ناصر هرهرة وأحمد بن سيف هرهرة، وهما من أبناء عمومته وَفَدا على حصن "حِلْيَن" ليزورا السلطان ويعرضا عليه اقتراحاً لتسوية بعض المنازعات المتصلة بالمراعي وقد دعاهما السلطان لتناول العشاء معه، وظلوا بعد ذلك يتسامرون إلى أن بلغ الليل نصفه فنهض السلطان وابنه ورجال الحرس إلى حيث آووا إلى فراشهم جميعاً، وفي الساعة الثانية صباحاً فتح الزائران باب الحصن الكبير وأدخلا منه عشرة من رجالهما كانوا مختفين في مكان قريب، وما هي إلا لحظة حتى انقضوا جميعاً إلى حجرات النوم وقتلوا السلطان وابنه وساقوا كل من كان في الحصن من الحرس والنساء إلى مدينة "أهل الحيد"[1] ثم احتلوا بعد ذلك القصر واستولوا على كل ما فيه من السلاح وغيره.

ولحسن الحظ أن للسلطان ابناً آخر وهو محمد صالح كان في أثناء الحادث في "النَّجرة"[2] الواقعة على مقربة من المَحْجَبَة ففزع إلى بعض القبائل اليافعية وشكا إلى رجالها تلك الجريمة الشنيعة. وعقد رجال هذه القبائل مؤتمراً نادوا فيه بمحمد صالح وريثاً شرعياً وخلفاً لأبيه على ولاية المَحْجَبَة.

ومقر السلطنة العفيفية في القارة بيافع السفلى، ولكن السلطان عيدروس بن محسن العفيفي اليافعي يقيم في قصره المبني على الطراز الحديث والذي يقع على سفح جبل ببلدة الحصن بيافع الساحل، وينوب عنه في القارة ابنه الأمير محمد وهو من الشخصيات المحبوبة ومحط آمال معظم السكان بيافع السفلى.

---

[1] - وردت في الأصل "أهل الحد".

[2] - وردت في الأصل "الناجرة" والصحيح النجرة وهو الموقع المطل على المحجبة في أعلى نقيل الشعيبين.

وقبائل يافع سواء الذين في المناطق العليا أو السفلى لا يدينون بالطاعة العمياء لسلاطينهم، وإنّما يعتبرونهم كرمز للسلطة لا أكثر ولا أقل. ومع هذا فأنهم يأتون مسرعين لنجدة السلطان حين يستعين بهم ضد أي اعتداء يقع على أراضيه.

كما أن قبائل يافع تتناسى ما قد يكون بينها من ضغائن وفتن وتصبح كتلة واحدة وجبهة قوية البنيان ضد أي عدو يهاجم من الخارج. وهذا ما جعل إمام اليمن يحسب له ألف حساب.

ومما تجب الإشارة إليه أن عدداً قليلاً جداً يحبون أن تنظم يافع الى اليمن وعدداً قليلاً جداً لا يكرهون الحماية الإنجليزية لبلادهم ولكن الأكثرية الساحقة وهم لا يقلون عن ٩٥ في المائة لا يريدون حكم الإمام ولا حماية الإنجليز.

وهذا العدد القليل الذي يحب أن تنظم بلاده الى اليمن يرى أن بلاد يافع لا تسمح لها امكانياتها بالمحافظة على كيانها كشعب مستقل، فيافع بحالتها الراهنة وبوضعها الحالي لا بد يوماً من أن تنظم لأحد الفريقين الإنجليز أو الإمام.

وهو أي هذا العدد القليل يفضل أن تنظم يافع لحكومة عربية إسلامية كاليمن. أما الجانب الثاني الذي لا يكره حماية الإنجليز يرى استقرار الحياة وانتشار الأمن في البلدان المحمية كحضرموت ولحج والضالع والشعيب وهم يعلمون كل العلم إن اليمن لم تصلح أمورها في داخل حدودها فكيف تقوم بإصلاح غيرها خارج بلادها.

وأما الأكثرية الساحقة التي لا تريد الانضمام لا لحكومة شرقية ولا لحكومة غربية فيرون للاستعمار أضراراً جسيمة لذلك فهم يفضلون أن تبقى يافع على ما هي عليه من تأخر على أن يحكمها مستعمر دخيل.

وتقوم حكومة اليمن في الوقت الحاضر بنشاط محسوس نحو ضم اليافعيين إلى حوزتها فهي تمنح بكل سهولة كل يافعي يطلب جواز سفر كما أنها فتحت مكتباً بجدة لمنح الجوازات اليمنية لأبناء جنوب شبة الجزيرة العربية وبخاصة يافع.

ولا شك أن اليمن ترمي من وراء ذلك ثلاثة أغراض:

أولاً: اجتذاب أكبر عدد ممكن من يافع وغيرهم من أبناء الجنوب.

ثانياً: أن يكونوا هؤلاء الذين منحوا الجنسية اليمنية دعاة لليمن حين يعودون إلى بلادهم.

ثالثا: تريد اليمن أن تتخذ من إقبال أبناء الجنوب على التجنس بالجنسية اليمنية دليلاً مادياً لدى جامعة الدول العربية ولدى الإنجليز وغير الإنجليز على أن أبناء الجنوب يفضلون حكومة اليمن على غيرها من الحكومات الجنوبية.

كلمتنا ليافع

لا شك أن بلاد يافع العليا والسفلى متأخرة في كل مرافق الحياة فلا حاصلات تسد حاجة السكان ولا مدارس تنشر التعليم ولا طرق معبدة ولا حكومة منظمة توحد صفوفهم وتؤلف بين قلوبهم وتصلح أمورهم وتقيم العدالة وتكفل لكل فرد الحرية والسلام. فالفوضى ضاربة أطنابها في كل أرجاء البلاد، والجهل يسود كل شيء والفقر أخذ يدفع السكان الى النزوح الى الخارج لطلب الرزق. ولا شك أن جانباً كبيراً من المسؤولية تلقى على عاتق السلاطين ورؤساء القبائل وعلى المتنورين من أبناء يافع. فهؤلاء يجب أن يوجهوا قومهم إلى الإصلاح والتعمير ويرشدونهم إلى الصراط المستقيم، يجب أن يبذلوا على ما يمكن بذله لإعلاء شأنهم ورفع مستواهم إلى المكان اللائق بهم.

يجب أن ينظروا إلى الأشياء بعين الحقيقة لا العاطفة، يجب أن يكونوا واقعيين لا خياليين. فليهدوا قومهم إلى ما فيه خيرهم وصلاح مستقبلهم ويضحوا بمراكزهم في سبيل ذلك متى اضطروا للتضحية.

إنها لجريمة كبرى أن تظل قبيلتان تقتتلان عشرات السنين.

إنها لجريمة كبرى أن يقضي الجهل والفقر على آلاف الناشئين. إن التعليم الصحيح أساس كل شيء من مقومات الوجود الإنساني وأنه إذا لم يصلح التعليم فلا بد أن ينهار كل شيء. ليعلموا أن تثقيف العقول وتقويم الأخلاق أهم من كل شيء، إنه أثمن رأس مال للأمة وأمضى سلاح تواجه به أحداث المستقبل. إنهم إذا عنيوا بالناشئين في

أوليتهم فقد ضمنوا في المستقبل الشعب كله وأنشأوا الدعامة القوية التي يستندون إليها حين يلتمسون أسباب الخلاص من الشدائد حين تتحرج ومن الخطوب حين تتعقد. إن الفقير الجاهل أضيق حيلة وأضعف وسيلة وأعجز عن مقاومة البؤس من الفقير المتعلم.

إننا إذا أردنا لأولادنا العلاج والتقدم في حاضرهم ومستقبلهم وجب علينا أن نطبعهم على مبادئ العلم الصحيح وأن ننشئهم على أمهات الفضائل والأخلاق الكريمة كالتضحية والإيثار والوقار والسماحة والجود والدفاع عن حومة الوطن.

ونحن أمة بدائية فخليق بنا أن نكون جيلنا تكويناً قوياً، قوياً في علمه قوياً في تفكيره قوياً في كل شيء. يجب أن نزوده بالأسلحة التي يخوض بها المعركة في ميادين الحياة وننظم حياته بين الدراسات العلمية والعملية.

إن الاسلام يفرض علينا طلب العلم وسواء كان هذا العلم من المسلمين أو مسيحيين أو مجوس فالحديث الشريف يقول "الحكمة ضاله المؤمن أنَّى وجدها التقطها".

أيها السلاطين أيها المشايخ أيها المتنورون من أبناء يافع أن عجلة الزمان تأخذ سبيلها إلى الأمام والتقدم الفكري والاجتماعي والثقافي والسياسي يطالبنا بأن نلبس لكل زمن لبوسه وأن نساير النهضة مسايرة من يؤمن بها ويعترف بوجودها حتى لا نتخلف عن متابعتها ونقف في مكاننا والزمان يطالبنا بسرعة السير ومواصلة النهوض والتجديد.

أيها القوم! ليس من صالح يافع أن تسلك لقافلة سبلاً متعرجة يتعذر فيها السير لما يكتنفها من عقبات تعوق سالكها وتحول بيننا وبين الهدف الأسمى الذي ننشده والغاية التي نسعى إليها، وليس من الحزم في شيء أن نغض العيون عما يعترض القافلة من صعاب.

قصائد الترحيب

في الاستقبالات الرائعة التي أقيمت لنا في يافع العليا، ارتجل بعض الشعراء قصائد شعبية بالشعر الحميني ننشر بعضها هنا.

قال الشيخ أحمد أبو بكر النقيب سيد الموسطة:

حيا وسهلا لي وفد إلى عندنا من عاصمة الاسلام إلى يافع تروس[1]

يافع جَبَر والقبيلة متعصبة ما يقبلو حكم النصارى والمجوس[2]

وقال:

يا مرحبا حيا نظام القبيلة زوروا أخيكم وأسمعوا فيما معه

من مصر جاكم بايشوف أخباركم ويلزم التبليغ لما الجامعة

إلى أن قال:

با اتخبرك هو شيء تحقق للعرب مشروع واحد للمدن والبادية

والعار واحد من مراكش للجنوب لما فلسطين الجروح الدامية

في الجُربة عاصمة بلاد المفلحي

قال ابن حمزة

رعنا نخاف السَّيل يدهم على العُبَر يافع جَدَد وأهل الحكم متعاونين

من عاون السِّركال والاَّ من سُكِر باندّى المجهود وبالله نستعين[3]

---

[1] تروس: مباشرة .

[2] جَبَرْ : تحكم نفسها ولا تخضع لسلطة مركزية أو نفوذ أجنبي.

٣ ـ السركال : الانجليز.

قال الشيخ عبد الحميد بن عبد الرحمن المفلحي سيد المفلحي بالنيابة:

بالتنسبة والتحسبة يافع جَبَر   با ندحن الشيطان وابليس اللعين

قال الفتى يا أهل السياسة والبصر   عُقّال يافع والقبل متخالفين

قال وفد الجربة:

وأقول يا حيا بالمنصب ذي ظهر   يملأ المطارح ذي بها الأب الأمين

والفكر بالآتي ونحذر ذي ظهر   من ذي يقيم الحق بالنصر المبين

قال الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المطري:

يا مرحبا مني تراحيب المطر   رحب بكم مولى التقارين الجلال

قرنه قلم صعدي وكبده من حجر   والحرية دولة وخَزنتها رجال[1]

وقال:

راسي جبل والحيد ذي نابه جبل   قد شيب راسي من مقارطة الجبال[2]

الموت حيا به ولا حكم الدول   ذي هانوا أهل العز وخلوهم ذلال

وقال:

باقول حيا في أصيلين النسب   الأصل من يافع وبكري من قريش

١- قلم صعدي: رصاص البندقية "العربي" وكان يُصنع في مدينة "صعدة" ولذلك نُسب إليها.

٢ - ورد عجز البيت في الأصل " ومسكنه نفسي من مقارصة الجبال" وقد صححناه حسبما سمعناه من بعض كبار السن. مقارطة: من القَرْط/القَرِيط، أي أكل الخبز الجاف ونحوه وطحنه بالأسنان بصوت مسموع ويرمز الشاعر هنا إلى عملية نحت الجبال وتقطيعها لبناء الدور والقصور.



المؤرخ صلاح البكري

ولد في إندونيسيا (1912م ـ 1993م) وتلقى تعليمه الإبتدائي بمدرسة الإرشاد العربية بجاكارتا ، ثم سافر إلى مصر عام 1930م ودرس مرحلتي الكفاءة والثانوية ثم التحق بجامعة القاهرة ، وتخرج من كلية الآداب قسم التاريخ عام 1938م من ثم التحق بمعهد التربية العالي وحصل على دبلوم التربية وعلم النفس عام 1940م وعين مدرسا بمدرسة القباري بالإسكندرية ثم نقل إلى مدرسة محمد علي القاهرة. فى عام 1950م ترك التدريس وسافر إلى هولندا واشتغل مذيعاً بالقسم العربي بإذاعة هولندا ، وفى عام 1952م انتدب للتدريس بمدرسة الفلاح الثانوية مكة المكرمة ، وفى عام 1957م اشتغل مديراً لقسم الأحاديث بالإذاعة العربية السعودية بجدة ، ثم مديراً لإذاعة نداء الإسلام ، ثم مراقباً دينياً لهذه الإذاعة .

صدرت له العديد من الكتب أهمها :

- تاريخ حضرموت السياسي
- في جنوب الجزيرة العربية
- إتحاد الجنوب العربي
- الجنوب العربي اليوم
- في شرق اليمن (يافع)
- جغرافيا البلاد العربية